نوال السعداوي

مذكّرات طفلة

رواية

مكتبة الفكر الجديد

دار الساقي

هذا هو الرسم الذي رسمته المؤلّفة عام ١٩٤٤ على غلاف الكراسة
التي تتضمن مسودة هذه الرواية الأولى لها.

مكتبة
الفكر الجديد

صدر للمؤلّفة في الرواية عن دار الساقي:

- الحب في زمن النفط
- سقوط الإمام
- زينة

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سومر كوكبي

مكتبة الفكر الجديد

نوال السعداوي

مذكّرات طفلة

دار الساقي

مكتبة الفكر الجديد

© دار الساقي 2015
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2015

ISBN 978-6-14425-842-2

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 5342/113، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

مقدمة

وأنا أرتّب أوراقي القديمة في أحد الأدراج المهملة في مكتبي عثرت على كراسة من كراريسي عندما كنت في السنة الأولى بالمدرسة الثانوية، مكتوب عليها: واجب الإنشاء.

كان ذلك عام ١٩٤٤، وقد طلب منّا مدرس اللغة العربية أن نختار موضوعاً نكتب عنه ثلاث صفحات لحصة الإنشاء المقبلة. واخترت هذا الموضوع "مذكرات طفلة اسمها سعاد"، وأمضيت أسبوعاً كاملاً أكتب، فملأت الكراسة كلها وأعطيتها للمدرس، فقرأها وأعطاني صفراً وردّ لي الكراسة على أن أقدّم له موضوعاً آخر من ثلاث صفحات فقط.

بقيت الكراسة ضمن أوراقي خمسة وأربعين عاماً تقريباً، حتى عثرت عليها منذ أيام، وقرأتها، ودهشت كيف كتبتها في ذلك الوقت المبكر من حياتي، وكيف أعطاني المدرس صفراً؟!

ما زلت أذكر شكله: كان قصيراً سميناً يرتدي طربوشاً مكرمشاً يسقط حتى أذنيه، وفي يده عصا من الخيرزان يلسعنا

بها، وعيناه من وراء النظارة البيضاء السميكة مثل قعر الزجاجة، جاحظتان تنظران إلي ببغض وهو يصيح قائلاً: صفر!

ربما هذا "الصفر" هو الذي جعلني أتوقف عن الكتابة سنين طويلة، وهو الذي جعلني أدخل كلية الطب بدلاً من كلية الآداب، وربما لولا أبي وأمي لانتهت حياتي بمثل ما انتهت حياة سعاد.

لهذا رأيت أن أنشر هذه الأوراق القديمة، وأن أهديها إلى كل طفلة "أو طفل" تراودها فكرة الكتابة أو تشعر برغبة في ذلك.

وكم من المواهب المبكرة تضيع بسبب التربية والتعليم والتقاليد البالية كما ضاعت موهبة سعاد!

نوال السعداوي

القاهرة، مارس ١٩٩٠

مكتبة الفكر الجديد

اللذة هو الشعور الذي عرفته سعاد حين كانت تجري فوق الأرض الدافئة المشبعة بالشمس، والهواء النقي المنعش يدخل صدرها، وحركة جسمها لا يعوقها شيء. ذراعاها وساقاها وظهرها وعنقها ورأسها، كل شيء فيها يتحرك، والحركة تصل إلى كل خلية في جسدها وعقلها في وقت واحد، فإذا بكيانها كله يتحرك كأنه خلية واحدة مترابطة الأجزاء في انسجام كامل مع بعضها البعض ومع الكون الكبير الذي يحيطها.

أدركت سعاد منذ زمنٍ بعيد لا تعرف مداه أنّ هذه الحركة تبعث في جسدها وعقلها لذّةً غريبة لها طعم اللبن الدافئ الذي ينساب في فمها حين تلامسها أمها، ولها دفء الدم الذي ينساب في جسدها حين تلامس يدها، ولها ملمس الكرة الناعم حين تمسكها بيديها.

ما أن تمسك الكرة بيديها حتى تقذفها مرةً أخرى لتجري وراءها وتمسكها. وحين تمسكها تعود فتقذفها وتجري وراءها وهي تصرخ من اللذة، لذة تحريك ذراعيها وساقيها وظهرها وعنقها ورأسها، تلك الحركة التي تهزّ جسدها وعقلها والكون من حولها بلذةٍ عجيبة تجعلها تضحك بصوتٍ عال وكأنها تصرخ.

تظن أمها أنها تصرخ لأنها تريد الكرة، فتلتقطها من الأرض

مكتبة الفكر الجديد

وتضعها بين يديها، لكنها تغضب من أمها وتبكي وتركل الكرة بقدمها بعيداً. فالكرة ليست هدفها، وإنما هدفها هو أن تتحرك إليها، أن تحرّك ذراعيها وساقيها وظهرها وعنقها ورأسها، أن تصل الحركة إلى كل خلية في جسدها وعقلها في وقت واحد وتهز كيانها وكأنه خلية واحدة بتلك اللذة العجيبة.

لم تكن أمها تفهم لماذا تبكي حين تعطيها الكرة في يديها. كانت تظن دائماً أنها تريد الكرة، ولم تكن تعرف أنها تريد أن تتحرك، وأنها حين تعطيها الكرة تجهض حركتها، أو تسلبها الشيء الذي تبرّر به الحركة وتفسد لذّتها. وكان يمكن لأمها أن تفهمها لو أنها رأت أنها تقذف الكرة بمجرد أن تمسكها، أو لو أنها تذكّرت طفولتها وهي في مثل عمرها وتلك اللذّة المحرمّة التي نسيتها أو خُيّل إليها أنها نسيتها، فهي لا تزال في مكان ما من رأسها، حين تنام تحلم أحياناً أنها تطير في الجو، وتحرك ذراعيها وساقيها وظهرها وعنقها ورأسها بتلك اللذة العنيفة، وجسدها ينساب في الكوب كعصفورٍ حرٍّ طليق، لا تعرف إلى أين تطير لكنها تطير، فالحركة هي هدفها وهي لذتها. الكون من حولها فسيح ممتد لا شيء يعوقها عن الطيران، تقفز فوق أطراف الأشجار وأسطح البيوت، لا الليل يخيفها ولا الشمس تحرقها، وتظن أنها ستبقى سابحةً في الكون إلى الأبد، لكنها سرعان ما تحسّ جسدها يثقل ويثقل حتى يلامس الأرض، وتحاول الطيران مرةً أخرى فلا تستطيع. جسدها ملتصق بالأرض عاجز عن الحركة، وترى الشبح الطويل قادماً نحوها، عيناه حمراوان

كالنار، تحاول أن تحرك ذراعيها وساقيها لتجري أو تطير لكن جسدها لا يتحرك، وتحاول أن تصرخ لكن صوتها لا يخرج. وفي اللحظة التي يهمّ فيها الشبح بابتلاعها تنتفض لتنقذ نفسها فإذا بها تصحو من النوم مبللةً بالعرق شبه مجهدة.

لم تكن تعرف بعد هذا النوع المخيف من الأحلام، ولا أي نوع آخر من الأحلام. تنام الليل كله بعمق وبغير حلم ثم تصحو بوجهٍ مشرق، تبتسم لوجه أمها بمثل ما تبتسم للشمس، بمثل ما تبتسم للقمر. لا تفرّق بين النهار والليل، ولا تعرف شيئاً اسمه الظلام أو الخوف. تلعب الكرة لتجري وتحرّك ساقيها وذراعيها، أو ترصّ المكعبات الملونة الصغيرة بعضها فوق بعض وتبني بيتاً يعلو شيئاً فشيئاً إلى أن تصل إلى قمّته فتهزّه بيدها لتتأكد من صلابته فإذا بجدران البيت تنهار وتتساقط وتعود مكعبات صغيرة، فتبدأ برصّها من جديد لتبني البيت مرةً أخرى. أمها تراها وهي تبني ثم تهدّ، وتبني ثم تهدّ، وحين تأخذ منها المكعبات لتنام تبكي، فهي لا تريد أن تنام الآن، عقلها ما زال نشطاً مستغرقاً في البناء والهدم، مستسلماً لتلك اللذة المتكررة المتعاقبة. في كل مرة تظنّ أن جدران البيت أصبحت أكثر صلابةً، وحين تهزّها بيدها تسقط، فتحاول مرةً أخرى بأمل أن تبني بيتاً لا يسقط مهمّا هزته بيدها: بيت حقيقي كالبيت الذي تسكنه، وجدران حقيقية كالتي تهزّها بيدها فلا تسقط أبداً.

تقبض بأصابعها على أحد المكعبات بكل قوتها، وتحاول

مكتبة الفكر الجديد

أمها أن تفتح يديها لتأخذ منها المكعب لكنها تضغط عليها بأصابعها، وحين تنجح أمها في فتح أصابعها وتأخذ المكعب تبكي، وتضعها في السرير وهي تبكي، ثم تنام وتحلم أن أمها لم تستطع أن تفتح أصابعها وأن المكعب لا يزال في يدها.

أول ما تفتح عينيها في الصباح تنظر في يدها فلا تجد شيئاً فتقفز من السرير باحثةً عن صندوق المكعبات، لكن صوت الجرس يصلصل في الشارع خارج الشرفة فتجري نحو الصوت لتعرف من أين يأتي. الشرفة سورها عالٍ، أعلى من رأسها، والسور له أعمدة حديدية، تدسّ رأسها بين العمودين لتطلّ خارج السور لكن أمها تشدّها من الخلف وهي تصرخ: "رأسك أثقل من جسمك وقد تسقطين في الشارع!". لكنها تريد أن ترى من أين يأتي ذلك الجرس الذي يصلصل، وهي لا تخاف السقوط في الشارع، ورأسها ليس أثقل من جسمها لأنها تدرك أن جسمها هو الذي يحمل رأسها، وليس رأسها هو الذي يحمل جسمها. وما أن تختفي أمها داخل المطبخ حتى تجري إلى الشرفة وتُدخل رأسها بين العمودين، أو تشبّ على أطراف أصابعها فتعلو رأسها على حافة السور وتستطيع أن ترى الشارع.

الشارع يبدو تحت عينيها واسعاً بغير بداية ولا نهاية، والناس السائرون كثيرون بعدد النجوم، وأعمدة النور طويلة ولا أول لها ولا آخر، والسيارات تجري بأقصى سرعة، والترام بعرباته كعربات القطار يسير فوق القضبان ويصلصل بذلك

مكتبة الفكر الجديد

الجرس الذي يهزّ أذنيها وجسدها بنشوةٍ عجيبة، وأصوات الشارع كلها تبعث في نفسها نشوة: أبواق السيارات بنغماتها المتعددة، أصوات الباعة وهم ينادون، دبيب أحذية الناس فوق الأسفلت، عجلات الترام وهي تصطكّ بالقضبان، ضحكات الأطفال وصراخهم وهم يجرون ويلعبون.

تدسّ رأسها بين العمودين وتودّ لو قفزت في الشارع ولعبت معهم، لكن يد أمها تشدّها من الخلف وهي تصرخ: "ستسقطين في الشارع وتموتين!". لكن فكرة الموت لم تكن قد دخلت عقلها بعد، وعقلها لايزال منطلقاً بلا قيود وبلا خوف، تريد أن تتحرك وتعرف كل شيء، وجسدها أيضاً يريد أن يكسر قيود البيت الضيق ويقفز من فوق الشرفة ليتحرك ويجري ويلعب في الشارع الواسع اللانهائي.

أحياناً كان يأخذها أبوها معه إلى الشارع، فتقفز من اللذة وهي تسير إلى جواره، تحرك ذراعيها وساقيها وتكاد تجري، لكن اليد الكبيرة تقبض على يدها، تحاول أن تشدّ يدها من يد أبيها لكنها لا تستطيع، الأصابع طويلة وقوية، تلتف حولها كالقبضة الحديدية، تكاد تخنقها، وتحاول أن تخلّص نفسها دون جدوى، لكن ما أن ترتخي الأصابع قليلاً حتى تشدّ يدها وتجري منطلقةً في الشارع، فيجري أبوها وراء ويمسكها مرةً أخرى وهو يصرخ: ألا تخافين من هذه السيارة التي قد تدوسك؟!

لكنها كانت لا تزال لا تخاف شيئاً: لا تخاف الشارع،

مكتبة الفكر الجديد

ولا تخاف السيارات، ولا تخاف الناس. عقلها يتوثّب بلا قيود ليعرف ويستكشف، وجسدها يتحرك بحرية، ذراعاها وساقاها وهي تمشي كأنها تطير، كعصفورٍ طليق في الجو، حركتها كحركة الهواء تنسجم مع الكون، فإذا بها والكون شيء واحد، والحركة تصل إلى عقلها وجسدها في وقت واحد، تهزّ عقلها بلذّة التفتّح للحياة، وتهزّ جسدها بلذّة الطيران مع حركة الكون.

لكن يد أبيها سرعان ما تمسكها، ويدها الصغيرة تقع في قبضة تلك الأصابع الحديدية، القادرة على تجميد حركة جسدها وعقلها، تقاومها لحظة، وتستسلم لها لحظة، واستسلامها لها ليس كاملاً لأنها ما أن تشعر بها تتراخى وتلين حتى تندفع من بينها كالصاروخ الصغير.

حين يشتري لها أبوها قطاراً أو سيارة تجلس على الأرض وتحرّكها، تدهشها الحركة ولا تعرف من أين تأتي، من بطن السيارة أم من مقدمتها أم من مؤخرتها.

تبحث بأصابعها عن سرّها، وتعثر يدها على المسامير فتفكّكها واحداً وراء الآخر وراء الآخر، وفي كل لحظة تتصور أنها ستصل إلى السر، لكن المسامير تنتهي والسيارة تتحول إلى قطع صغيرة من الصفيح ليس داخلها شيء. وتفعل بالقطار ما فعلته بالسيارة، ثم تبحث عن لعب أختها الصغيرة وأخيها الأصغر، ولم يكن لأختها إلا عروسة كبيرة ترتدي ملابسَ على شكل كرانيش، طبقة فوق طبقة فوق طبقة، تخلعها واحدةً وراء

مكتبة الفكر الجديد

الأخرى وراء الأخرى حتى تصل إلى جسد العروسة العاري، فتخلع عنها ذراعيها وساقيها ورأسها وعنقها، وتدسّ أصبعها في فتحة العنق لتعرف ما بداخلها، فلا تجد إلاّ الهواء.

تبكي أختها حين ترى أشلاء عروستها الممزقة، فتربّت عليها فتكفّ أختها عن البكاء وتلعب معها، وينضمّ إليهما أخوها الأصغر. لكن أخاها ليس مثلها، وبين فخذيه ذلك الشيء الصغير الذي تسمّيه أمها "العصفورة"، وتحاول أن تعرف التشابه بينها وبين العصفورة التي تطير في الجو، لكنها لا تجد بينهما أي تشابه. فالعصفورة لها أجنحة ترفرف في الجو وهذه ليست لها أجنحة، وكانت ترى أن الطائرة في السماء لها أجنحة مثل الطيور، لكن القطار يجري فوق العجلات. تدفع القطار بيدها فيجري فوق القضبان وتضحك من شدة اللذة.

إلا أن لذتها كانت تشتدّ أكثر حين تجد نفسها داخل قطار حقيقي، والقطار يتحرك وحده ويندفع فوق القضبان بتلك السرعة العجيبة، والصافرة، والدخان الكثيف ينطلق في الجو، والأعمدة الطويلة تتراجع إلى الوراء بسرعة جنونية، وعيناها مشدودتان إلى الحركة، تتابعها بالسرعة نفسها، تكاد تلهث مع القطار بتلك الحركة العنيفة التي تهزّ جسدها وعقلها بلذةٍ عجيبة.

تظل اللذة في عقلها وجسدها حتى تصل إلى بيت جدتها ذي الباب الخشبي الكبير. تفرح بذلك البيت الذي يشبه الشارع، فسيح كالشارع، وأرضه تراب، ترشّها جدتها بالماء وتفرش

فوقها حصيرة كبيرة ترقد فوقها هي وأولاد عمّتها خديجة ويتدحرجون ويتمرغون ويضحكون. تترك الحصيرة وتتمرّغ على الأرض، وجهها وشعرها يغرقان في التراب، تملأ كفّها بالتراب وتضعه في فمها، تمضغه بلذة وتبتلعه. لكنّ يد أمها تشدّها من الخلف وصوتها الحاد يصرخ في صدرها. إلا أنّ حركة جسمها لا يعوقها شيء، فهي جزء من حركة الكون، كأنها تسبح أو تطير في ذلك الفضاء اللانهائي.

تعود سعاد من الحقل فوق ظهر الحمار إلى الدار، والدار تفوح منها رائحة الخبيز والفطير و"المشلتت"، وتجري لتجلس إلى "الطبلية" بجوار أولاد عمتها، وتأكل معهم من صحن واحد، لكنّ أمها تشدّها من يدها وتأخذها إلى فناء الدار حيث الزير الكبير المملوء بالماء، تُفرغ لها الماء من الكوز وتغسل يديها ثم تُجلسها إلى "طبلية" أخرى خاصة بهم، فتجلس إلى جوار أختها وأخيها ويأكل كلٌّ منهم من صحنه.

ترمق أولاد عمتها وهم يأكلون من بعيد، وتتبادل النظرات هي وزكي، ويبتسمان عبر المسافة التي تفصل بينهما. تسأل أمها لماذا لا تأكل مع أولاد عمتها، فتهمس لها أمها في أذنها قائلةً: "إنهم فلاحون، يأكلون بأيديهم القذرة من صحنٍ واحد".

لكنها كانت تريد أن تأكل مع زكي أكثر ممّا تريد أن تأكل مع أختها وأخيها، وتحب أن تلعب مع زكي أكثر ممّا تلعب معهما. زكي يعرف أشياء كثيرة، ويركب الحمار وحده، ويعرف الطريق إلى الحقل وحده، وله أصدقاء كثيرون من أولاد الجيران يلعبون

مكتبة الفكر الجديد

معاً في الشارع أو يمشون على جسر النيل حتى تغرب الشمس وتُظلم الدنيا فيجلسون في ضوء القمر أمام الدار، يحكون الحكايات التي لم تسمعها من قبل: حكايات عن العفريت الذي يظهر بالليل على شكل مارد طويل له عينان حمراوان، أو على شكل قط أسود ضخم يموء، أو ذئب يعوي بصوت غريب، أو على شكل سمكة كبيرة لها رأس امرأة ويسمونها "الجنّية"، وهي تخرج من النيل وتتمشى على الجسر بالليل وإذا وجدت أحداً خطفته وأخذته معها إلى قاع النيل. تلهث أنفاس سعاد وهي تستمع إلى هذه الحكايات، وتمتلئ الظلمة من حولها بالأشباح فتقترب من زكي وهو جالس على الأرض وتلتصق به متكورةً حول نفسها مخبّئةً ذراعيها وساقيها تحت جسدها خشية أن يشدّها العفريت بعيداً.

تأتي عمتها خديجة، وحين تراها جالسةً على الأرض مع الأولاد تقول لها: "لو رأتك أمك وأنت جالسة على الأرض هكذا فسوق تضربك". إنها تحسد زكي لأن أمه لا تضربه إذا جلس على الأرض، فتقول لها: "ولماذا لا تضربين زكي، فهو جالس على الأرض مثلي؟". تضحك عمتها خديجة وتخفي فمها بطرف طرحتها السوداء وتقول: "زكي فلاح ابن عمك عبد الله الفلاح وعمتك الفلاحة، لكن أنت "بندرية" وأمك "بندرية" وأبوك موظف كبير قدّ الدنيا".

لم تكن تعرف بعد ماذا تعني كلمة فلاح أو "بندري" أو موظف، لكنها كانت تظن أن عمتها خديجة تحبها أكثر ممّا

تحب ابنها زكي أو أي أحد من أولادها، لكنها تحب أخاها أكثر مما تحبها، وتعطيه الحمار ليركبه ولا تعطيه لها، وتقول لها: "الولد يركب والبنت تمشي، لأن البنت في رجليها حديد". تنظر سعاد إلى قدميها وساقيها كأنما تبحث عن الحديد فتضحك عمتها وهي تحجب فمها بطرحتها وتقول: "أقصد يا حبيبتي أن البنت تتحمل أكثر من الولد"، فتسألها: "يعني البنت أقوى من الولد يا عمتي؟"، فتردّ عمتها: "البنت لها سبع أرواح مثل القطط، لكن الولد له روح واحدة فقط".

لا تفهم سعاد ماذا تعني عمتها بكلامها فتسألها: "يعني البنت أحسن من الولد؟"، فتردّ عمتها على الفور: "لا يا حبيبتي، الولد أحسن من عشر بنات". وإذ تلاحظ سعاد أن زكي يرتدي جلباب بنت، تقول لعمّتها: "إذا كان الولد أحسن من البنت فلماذا يرتدي زكي جلباب بنت؟ ولماذا البنت لها سبع أرواح والولد له روح واحدة؟"، فتردّ عمتها: "لأن الولد نجمه خفيف، الناس تحسده بسرعة ويصيبه المرض ويموت وهو صغير. ثلاثة صبيان ماتوا منّي قبل زكي. جدتك الحاجة قالت لي: "يا خديجة، الناس في كفرنا عيونهم مثل الرصاص على الولد، إنما البنت لا أحد يحسدها. البنت تجلب الهموم لكن الولد يجلب السعد لأهله. والولد الذي يرتدي جلباب بنت لا يحسده الناس لأنهم يظنون أنه بنت. أنا عندي ثلاثة أولاد وخمس بنات "كبة" بنات مثل الهمّ على القلب".

تندهش سعاد حين تسمع عمّتها تذمّ البنات فتقول لها:

"ولكنك بنت يا عمتي، فهل تكرهين نفسك أيضاً؟"، فتضحك عمتها وتقول: "يا حبيبتي، والنبي أنت عقلك نبيه يا سعاد. ربنا خلقني بنتاً، وأنا راضية بنصيبي. ماذا أفعل. إرادة ربنا. الله هو الذي يخلق البنت وهو الذي يخلق الولد".

أحست سعاد أن الله يحب أخاها أكثر منها لأنه خلقه ولداً وليس بنتاً، وأصبح أخوها يحب اللعب مع الأولاد مثله، ويطرد البنات من اللعبة. وكانت تبكي حين يطردها من اللعب وتصعد إلى البيت تشكو وتسمع أبوها يقول لها: لا تلعبي في الشارع مع الأولاد!

لم تكن سعاد تحب العودة إلى تلك الشقة الضيقة، المليئة بالأثاث، وليس لها فناء واسع، وليس هناك حقل تجري فيه، ولا حمار تركبه، ولا شارع تلعب فيه مع الأولاد ويجلسون على الأرض في ضوء القمر يحكون الحكايات عن تلك العوالم المسحورة الغربية.

الشارع تحت الشرفة كان مليئاً بالسيارات والناس والباعة والترام. هي لا تنزل إلى الشارع لتلعب، فأمها تحذرها دائماً من الخروج من باب الشقة وحدها، وإلا فهناك في الشارع رجال غرباء يسرقون الأطفال.

تدور سعاد كالسجين الصغير في حجرات البيت الثلاث الضيقة، ثم تُخرج ألعابها من الصندوق وتلعب مع أختها وأخيها، أو مع أي أطفال يأتون مع أهلهم لزيارة أمها وأبيها.

ظلّ صليل جرس الترام يجذب سعاد نحو الشرفة، لكنها

مكتبة الفكر الجديد

أصبحت تقف على عتبة الباب الذي يقود إلى الشرفة وترمق بعينيها الشرفة المجاورة، حيث تجلس امرأة تمشّط شعرها الأسود الطويل، وحين تراها تبتسم وترى فمها واسعاً كبيراً كفم الغولة، فتجري داخل البيت وهي تصرخ: الغولة... فتقول لها أمها إنها ليست الغولة، بل هي جارتهم. لكنها لم تعد تستطيع الخروج إلى الشرفة وحدها، وتظن، إذا ما اقتربت من الشرفة، أن هذه المرأة سوف تمدّ يدها أو شعرها الطويل من بين الأعمدة الحديدية وتمسكها وتأكلها.

أصبح الخروج مع أبيها إلى الشارع هو الذي يذكّرها باللذة القديمة، فهي تسير إلى جواره، تحرك ذراعيها وساقيها وتشعر برغبة في القفز والطيران، لكنها تقاوم الرغبة، فالشارع مليء بالسيارات السريعة، وإحدى السيارات قد تدوسها، فتمسك بيد أبيها وتتشبّث بها، تخاف أن تفلت يدها من يد أبيها وسط الزحام، وتفقد أباها وسط الناس، ولا تعرف الطريق إلى البيت فتتوه في الشوارع الواسعة الممتدة اللانهائية، ويأتي الليل وهي تمشي وحدها في الظلام، ولا تجد حجرتها ولا سريرها الذي تختبئ داخله تحت الغطاء من العفاريت، ولا تجد أمها التي تلفّ ذراعها حولها حتى تنام، وتبكي من الخوف والجوع فيراها أحد اللصوص الذين يسرقون الأطفال فيأخذها ولا يعرف أحد مكانها.

تلفّ أصابعها الصغيرة حول يد أبيها، فإذا أفلتت منه في الزحام جرت وأمسكت بها قبل أن تفقدها. لكن ما أن تقترب

مكتبة الفكر الجديد

من البيت وترى أمها وهي تطلّ عليهما من الشرفة تترك يد أبيها وتجري وحدها، وتصعد السلم وحدها، ثم تدق الباب بيدها بقوة.

ركوب القطار أيضاً كان يذكّرها بلذتها القديمة وبتلك الحركة السريعة التي تبعث في جسدها النشوة، وعقلها يتساءل: لماذا تجري أعمدة السواري إلى الوراء بينما يجري القطار إلى الأمام؟ وكيف تجري الأعمدة فوق الأرض بغير عجلات وبغير قضبان كالقطار؟ لكن أباها يقول لها إن الأعمدة ثابتة في الأرض ولا تتحرك، فتندهش وهي تراها تجري إلى الوراء واحدة وراء الأخرى، وما أن يقف القطار حتى تقف هي الأخرى.

هذه المرة لم ترَ بيت جدتها ذا الباب الخشبي الكبير، ولا عمتها خديجة ولا أولادها ولا الحقل ولا الحمار، وإنما رأت بيتاً كبيراً تحيط به حديقة وباباً حديدياً كبيراً يعلوه جرس يدقّ كلّما فُتح الباب أو أُغلق.

دخلت وراء أمها وأختها، ومن ورائهما دخل أبوها وأخوها، وأقبل الكلب الكبير ينبح فاتحاً فمه الكبير كاشفاً عن أنياب طويلة مدبّبة. التصقت بأمها مذعورة، لكنّ أمها نهرت الكلب بصوتها العالي: "اِمشِ يا وولف" فهدأ الكلب على الفور ومسح أنفه بساق أمها البيضاء السمينة فربتت على رأسه. دار الكلب عليهم واحداً واحداً يشمّه من الأمام والخلف، وتجمّدت في مكانها حين لعق الكلب ساقها بلسانه، خشيت أن تحرك ساقها

مكتبة الفكر الجديد

فيفتح الكلب فمه ويلتهمها. في حقل عمها عبد الله كان هناك كلب، لكنه ليس ضخماً كهذا الكلب، وفمه ليس كبيراً وليس مخيفاً كهذا الفم، وصوته حين ينبح ليس مفزعاً ولا غليظاً كهذا النباح.

وأقبل رجل نحيف قصير، شعره أبيض وصوته عالٍ غليظ، يرتدي بيجامة صفراء حريرية من فوقها معطف حريري أخضر. سمعت أمها تقول لها: "سلّمي على جدك يا سعاد". قبّلها جدها على خدها، وشمّت رائحة غريبة، ليست مثل رائحة أبيها ولا رائحة أمها ولا رائحة جدتها، ولكنها مزيج من الدخان والكولونيا وشيء آخر مثل وابور السبرتو. وأقبل شاب طويل وجهه أبيض وشعره أسود غزير، وقالت أمها: "سلّمي على خالك حسنين"، فسلّمت عليه وسمعت صوته العالي الغليظ يشبه صوت جدها.

وجدت بيت جدها واسعاً، فيه حجرات كثيرة وأثاث كثير، والأرض تلمع، ومن فوقها سجاجيد سميكة، والجدران ملونة، عُلّقت عليها صور كثيرة لها براويز سميكة مذهبة. وسمعت أباها ينادي جدها "علي بيه" وجدها ينادي أباها "حسن أفندي".

أما جدتها فكانت صامتة طول الوقت، جالسة بجسمها الأبيض الممتلئ داخل رداء حريري أسود، وساقاها السمينتان البيضاوان داخل جوربين شفافين أسودين، وجهها مستدير أبيض، وبشرتها مترهّلة بلا تجاعيد، وعيناها ليس لهما سواد

أو بياض مثل عيون الناس، وإنما لهما لون واحد رمادي، كأنهما لم تريا النور أو الشمس قط، أو كأنما ذاب سوادهما في بياضهما من كثرة البكاء أو طول النوم. يداها البيضاوان السمينتان راقدتان في حجرها، صغيرتان لكنهما مترهلتان منذ أمدٍ بعيد.

لم تكن ترى جدتها إلا جالسةً صامتة في ركن الصالة الفسيحة، تتطلع بعينيها الرماديتين من حين إلى حين إلى رقعة الضوء التي تظهر حينما يُفتح باب البيت. أما خالتها دولت فلم تكن تراها إلاّ وهي تتحرك في البيت من حجرة إلى حجرة، تتحدث بصوتٍ عالٍ إلى الخادمة. لم تكن خالتها بيضاء البشرة مثل أمها، ولم تكن ممتلئة الجسم، بل كانت نحيفة سمراء وقصيرة مثل جدها، وصوتها عالٍ مثل صوته، وعيناها واسعتان بياضهما كبير وجاحظ وسوادهما صغير يتحرك بسرعة داخل البياض، كحركة شفتيها وهي تتكلم، وكحركة يديها وذراعيها وهي تمشي وراء الخادمة من حجرة إلى حجرة، تنهرها لأنها لم تنظّف النوافذ كما يجب، أو لأنها لم تشدّ ملاءة السرير كما درّبتها، أو لأنها لم تمسح التراب عن الراديو الكبير بحجم الدولاب في ركن الصالة.

كان هذا الراديو هو الشيء الوحيد الذي أحبته سعاد في بيت جدها، ولم تكن قد رأت راديو من قبل. وحين أدار خالها أحد مساميره وانطلق منه الغناء والموسيقى اتّسعت عيناها بالدهشة والفضول. وإلى جوار الراديو كان هناك دولاب كبير

مكتبة الفكر الجديد

آخر يسمّونه "الفونوغراف"، في أحد جانبيه يد خشبية يحرّكها خالها فإذا بالأسطوانة تدور ومن فوق الأسطوانة تدور إبرة رفيعة فينبعث صوت الغناء والموسيقى.

بمجرد أن يصلصل جرس باب الحديقة يرفع خالها الإبرة من فوق الأسطوانة فيحلّ الصمت في الصالة الفسيحة، وصوت خالتها العالي ينقطع، وتتوارى الخادمة في المطبخ، وكل شيء داخل البيت يصبح ساكناً صامتاً لا يتحرك من مكانه، حتى جدته تزداد صمتاً فوق صمت، وعيناها الرماديتان تكفّان عن الحركة وتثبتان، فتصبح، بردائها الأسود وجسمها الأبيض، كتمثال من الشمع المتّشح بالسواد.

أدركت فيما بعد أن صلصلة الجرس تعني أن جدّها قد فتح الباب ودخل. ولجدها حين يفتح الباب حركة معينة تجعل الجرس يصلصل بنغمة معينة يعرفها كل أفراد الأسرة، ولحذائه فوق السلّم عند مدخل البيت وقعٌ معين، وعصاه الصغيرة ذات الرأس كرأس الثعبان تقرع زجاج الباب الخارجي، ثم يدخل إلى الصالة بجسمه النحيف القصير ورأسه الأبيض الكبير، أنفاسه العالية وهو يتحرك تعلن عن وصوله، وتلك النحنحة أو السعال أو التمخط، أو صوته العالي حين ينادي على ابنه أو ابنته أو الخادمة لتأخذ منه العصا وتحمل عنه المعطف أو تخلع عنه الجاكتة وتعلّقها على الشماعة.

لم يكن ينادي على زوجته أبداً، وخُيّل لسعاد أن جدها وجدتها لا يتحدثان مع بعضهما بعضاً أبداً، وأنّ خالها لا يكلّم

خالتها، وأنّ الكلام الوحيد الذي يدور داخل البيت هو بين خالتها والخادمة أو الطبّاخة في المطبخ، وهو ليس كلاماً وإنما أوامر أو ملاحظات غاضبة.

لم تكن سعاد تحب الأيام التي تمضيها في بيت جدها، فالحديقة واسعة وبها زهور جميلة لكن الكلب "وولف" يتربّص بها كلّما همّت بالنزول إليها، فإذا ما ربط الجناييني الكلب في السلسلة فإن حذائها يتّسخ بالطين، وعينا خالتها دولت تتربّصان بحذائها كلما صعدت من الحديقة إلى الصالة، وصوتها العالي الغاضب يرنّ في البيت معلناً أنّ أرض الصالة قد اتّسخت.

لم يكن أمامها إلا أن تجلس بجوار الراديو حين يحرّك خالها المسامير وينبعث الغناء والموسيقى، عيناها تتابعان أصابع خالها، وتحاول أن تكتشف السر: كيف ينبعث الصوت من ذلك الدولاب الخشبي؟ وقد بلغ بها الفضول مرةً أنها مدّت يدها في غياب خالها وحرّكت المسامير فانتفض جسدها بنشوةٍ عجيبة حين انطلق فجأةً صوت رجلٍ يغنّي. كادت تصرخ من اللذة، لكنّ صوت خالتها دبّ في أذنيها كالرعد: "لا تلمسي الراديو وإلا أفسدتيه"! فانكمشت في مقعدها الكبير في الصالة، وأقبلت خالتها بعينيها الجاحظتين الغاضبتين، تطرقع بكعب حذائها فوق أرض الصالة، ومدت يدها الكبيرة السمراء، وبأصابعها الرفيعة المرتعشة المدببة أغلقت الراديو.

في الليل، قبل أن تنام، تهمس في أذن أمها قائلةً: "متى نعود

مكتبة الفكر الجديد

إلى بيتنا يا أمي؟"، فتربّت أمها على ظهرها وتقول: "حين تنتهي إجازة أبيك"، فتلفّ ذراعيها حولها وهي تقول: "ولكني لا أحب هنا"، فتقول أمها: "لماذا يا سعاد، وهنا حديقة جميلة وبيت جدك واسع وليس مثل بيتنا الضيق؟"، فتقول سعاد: "ولكني لا أحب جدي"، فتضع أمها يدها على فمها وتهمس لها: "لا تقولي هذا أمام أحد هنا. إن جدك يحبك ولا بدّ أن تحبيه يا سعاد".

وتغمض عينيها وتنام، وفي منتصف الليل تصحو، ولا تجد أمها إلى جوارها في السرير، ولا أختها ولا أخاها. هي وحدها تماماً والظلام الكثيف يحيط بها، عيناها تبحثان في الظلمة عن بقعة ضوء، ترى ظلالاً تتحرك فوق الجدار: ظلال سود ولها عيون حمر كالعفاريت. تخفي رأسها تحت الغطاء وتكوّر ذراعيها وساقيها حول بطنها، لكن البول يضغط على بطنها ويؤلمها. ترفع الغطاء قليلاً وتطلّ برأسها لتنهض وتسير إلى دورة المياة، لكن الأشباح الغريبة لا تزال متربّصةً بها عند الباب، ووراء الباب ممر طويل مظلم، ودورة المياه بعيدة، ولها نافذة مفتوحة تطل على الحديقة، ومن يدري، ربما يقفز من النافذة شبح أو عفريت أو لصّ يأخذها بعيداً إلى حيث لا يعرف طريقها أحد. أخفت رأسها مرةً أخرى تحت الغطاء وأغمضت عينيها ونامت، ورأت وهي نائمة نفسها وهي تلعب في الحديقة، ويضغط البول على بطنها وهي تلعب فتجري إلى السلّم الخلفي الذي يقود إلى دورة المياة، وتجلس وتبول،

وتشعر بلذة البول الدافئ، ويضيع الألم الضاغط على بطنها حتى يتلاشى تماماً مع آخر قطرة دافئة، وتفتح عينيها فجأةً وتمتد يدها بسرعة من تحتها، وحين تحسّ بالبول تنتفض من الذعر، تحاول أن تنام مرةً أخرى لكن البول من تحتها يشعرها بالبرد فتدسّ جزءاً من الغطاء بينها وبين البول، لكنها لا تنام، وسؤالٌ ملحّ يُشيع في قلبها الخوف: ماذا ستفعل خالتها حين ترى سريرها في الصباح؟

لم تكن تريد أن يطلع الصباح، ودعت الله أن يطول الليل ويمتد حتى يجفّ فراشها، وقد كوّرت الملاءة من تحتها لتشرب البول، لكنّ الصباح طلع، ولا شيء جفّ، فلم تغادر فراشها وظلت في سريرها مختفيةً تحت الغطاء، حتى جاءت خالتها ومن ورائها الخادمة لتنظيف الحجرة، فتسللت من الفراش هاربةً إلى حجرة أمها وأبيها، لكنها سرعان ما سمعت صوت خالتها العالي يرنّ في جميع حجرات البيت معلناً أنها بللت فراشها، فاختفت داخل الدولاب في حجرة أمها، لكنّ خالتها استطاعت أن تعرف طريقها، وشدّتها من يدها خارج الدولاب وهي تقول لها: "إطلعي يا فلاحة يا أم شخّة!".

لم تكن تعرف بعد ماذا تعني كلمة فلاحة لكنها ارتبطت في عقلها بشعور بالخزي لأنها بللت الفراش، وأصبحت تبكي كلما قالت لها خالتها: "يا فلاحة"، وتشعر بالخزي حتى وإن لم تبلّل الفراش.

وجدت سعاد نفسها في بيت آخر من دون شرفة، ومن دون

شارع واسع تراه من الشرفة، وإنما نافذة تطلّ على بيتٍ آخر عالٍ، وفوق النافذة أعمدة حديدية. رأسها أصبح كبيراً ولا يمكن له أن ينفذ بين العمودين الحديدين، فأصبحت تضغط وجهها بين العمودين وترى الشارع الصغير الضيق تحت النافذة، وكان هناك رجل واقف إلى جوار عربة فوقها أكوام عالية من الفول السوداني واللبّ، في وسطها مدخنة سوداء يتصاعد منها دخان كثيف تخفّ كثافته وهو يعلو حتى يتلاشى في الجو.

عيناها تتعلقان بآخر خيوط الدخان في الفضاء، وترى السماء زرقاء متوهجة بضوء الشمس، وعصفورة ترفرف بجناحيها تحت الضوء الذهبي وتطير بتلك الحركة الحرة العجيبة التي ليست عندها... لو أنّ الله خلقها عصفوراً، ألم يكن ذلك أفضل بكثير؟ كان يمكنها أن تنفذ بجسمها الصغير من بين هذه القضبان وتطير في الجو دون أن يراها أبوها وأمها، ودون أن تفتح باب الشقة المغلق.

كانت أمها تغلق الباب بالمفتاح دائماً، وتسمعها تقول إنّ اللصوص كثيرون. وفي الليل تُحكم إغلاق النوافذ، ولم تكن تعرف كيف يمكن أن ينفذ اللصّ من بين القضبان الحديدية فوق النوافذ وهي لا تستطيع أن تنفذ من بينها. لكنها لم تكن تفرّق كثيراً بين اللص والعفريت، فالعفريت، كما سمعت من عمتها، ليس له جسد وإنما هو روح لا يراها أحد، وقد يغيّر العفريت شكله فيصبح طويلاً رفيعاً كالثعبان ويدخل من أي شقّ في الباب أو النافذة، وقد يكون ضخماً كبيراً وله رأس كبير أكبر من رأس

الفيل وعيناه حمراوان بوهج كالنار.

لم تكن تحب الليل لأن الليل مظلم، والعفاريت لا تظهر إلا في الظلام، وكانت تحب النهار والشمس حين تسطع وتملأ الكون بالنور والدفء. لكن البيت العالي المجاور لهم كان يحجب عنها الشمس، وكانت لا تراها إلا في السماء من بعيد، وأشعتها الذهبية تسقط بالقرب من نافذتها ولا تدخل أبداً، فتمدّ ذراعها من بين القضبان لكن يدها لا تصل إليها.

أكثر شيء كانت تحبه هو أن تخرج من البيت إلى الشارع مع أبيها أو أمها. والشارع هو الشارع الذي رأته من قبل: واسع وممتد بلا بداية أو نهاية. والسيارات تنطلق بسرعة فوق الأسفلت اللامع، والناس الكثيرون يسيرون، والباعة ينادون وأبواق السيارات تزعق وأجراس الدراجات تصلصل. تذكّرت جرس الترام الذي كان يصلصل، وأدركت أن هذا الشارع هو ليس الشارع القديم، لأن الشارع القديم كان فيه ترام يجري على قضبان، وهذا الشارع ليس فيه ترام.

وجدت سعاد نفسها في يوم من الأيام في المدرسة. بكت في اليوم الأول، حين تركتها أمها وأصبحت وحدها وسط الوجوه الغريبة، وخشيت أن يسرقها أحد، لكن اليوم انتهى دون أن يسرقها أحد، وجاء أبوها وأخذها إلى البيت. في اليوم التالي ظلت خائفة من الوجوه الغريبة، متصورةً أن أحداً سيأخذها إلى مكانٍ بعيد ولن يعرف أبوها مكانه، لكن اليوم انتهى وجاء أبوها وأخذها إلى البيت.

مكتبة الفكر الجديد

تآلفت سعاد مع الوجوه في المدرسة، فقد عرفت وجوه الأطفال في فصلها، وعرفت وجه المدرسة التي تعلّمهم حروف الكلمات. في الفصل يجلس إلى جوارها طفل اسمه "محمد" يضع في حقيبته كيساً فيه قطع من الكعك، أعطاها مرة قطعةً منها وكانت جائعة فأكلتها، وأصبحت تلعب مع محمد في فناء المدرسة، ويتزحلقان معاً ويركبان الأرجوحة معاً.

ذات يوم صعدت من الفناء إلى الفصل قبل الجميع. كانت جائعة، ورأت حقيبة محمد بجوار حقيبتها ففتحتها وأخذت قطعة كعك ووضعتها في فمها قبل أن يراها أحد. أقبل محمد وفتح حقيبته، وحين فتحها ولم يجد الكعكة تلفّت حول متسائلاً: "من أخذ كعكتي؟" وسمعته المدرّسة وهي تمرّ بين الصفوف فقالت بصوتٍ عالٍ رنَّ في كل أنحاء الفصل: "من أخذ كعكة محمد؟". صوتها كان عالياً كصوت خالتها، والعصا الرفيعة تهتزّ بين أصابعها الرفيعة المرتعشة المدبّبة. أطبقت سعاد شفتيها بقوة وكتمت أنفاسها حتى لا تفوح منها أي رائحة للكعكة، وقلبها كان يدقّ بسرعة، وأصابعها، وهي تمسك القلم، ترتعش فوق الورقة. لكن الحصة انتهت والمدرّسة خرجت من الفصل دون أن تعرف من الذي أخذ الكعكة، وانتهى اليوم وعادت إلى البيت.

كانت قد عرفت الطريق من البيت إلى المدرسة، وأصبحت تذهب إلى المدرسة وحدها، وخطوتها سريعة وهي تمشي كأنها تجري، وخوفها يزداد حين ترى ذلك الشحّاذ العجوز

مكتبة الفكر الجديد

الذي ينظر إليها بعينين فاحصتين ضيقتين ثم يدبّ خلفها بعكازه الخشبي، فتنطلق سعاد تجري بأقصى سرعتها. كل صباح تضع أمها في حقيبتها كيساً به نصف رغيف داخله بيضة مسلوقة أو قطعة جبن، تأكله حين تجوع، لكنها لا تشبع، وفي بعض الأحيان، حين تكون في الفصل وحدها، تفتح حقيبة محمد وتلتهم بسرعة قطعة من الكعك قبل أن يراها أحد.

كان محمد يسكن في البيت العالي المجاور، وكان ينادي عليها من نافذته العالية أحياناً ليلعبا معاً في الشارع أمام البيت. وكانت أمها تفتح لها باب الشقة وهي تقول: لا تلعبي بعيداً عن البيت حتى لا تتوهي ويسرقك أحد.

كانت أمها تخرج مع أبيها آخر النهار وتغلق الشقة بالمفتاح، فكانت سعاد تضرب الباب بيدها بكل قوتها وتصرخ تريد أن تفتحه، لكنّ الباب يظلّ مغلقاً، وتؤلمها يدها، وقد يصاب أحد أصابعها بجرح، أو قد تلتهب كفّ يدها وتحمرّ، فتترك الباب وتدخل لتلعب مع أختها وأخيها، أو تلعب مع الخادمة فتحية.

فتحية كانت أكبر منها قليلاً، رأسها من دون شعر، بعد أن حلقت أمها شعرها حتى آخره لأنه كان مليئاً بالقمل، ترتدي فوق رأسها منديلاً يشبه المنديل الذي ترتديه جدتها وعمتها لكنه ليس أسود. ولم تكن سعاد تلعب مع فتحية إلا حين تخرج أمها، فكانت تشدّها من جلبابها الواسع، وهي واقفة أمام الحوض تغسل الصحون، وتقول لها: "تعالي نلعب يا فتحية"، لكنّ فتحية كانت تظل واقفةً مكانها وهي تقول: "لا

مكتبة الفكر الجديد

يا ستي سعاد، ستي تضربني"، فتقول لها: "ماما خرجت هي وبابا"، فتجفّف فتحية يديها المبللتين بجلبابها وتخرج معها إلى الصالة أو إلى حجرتها حيث تلعب معها "الاستغماية"، أو تجلس على الأرض وتربّع ساقيها تحت الجلباب وتحكي لها حكايات العفاريت التي كانت قد سمعتها من جدتها وأولاد عمتها. وذات مرة سألتها: "من أين تأتي العفاريت؟"، فقالت لها إن العفريت يظهر بعد أن يموت الإنسان، وأنّ أباها طلع عفريته بعد أن مات، ورأته أمها واقفاً عند باب الزريبة فصرخت من الخوف.

لم تكن تعرف أن فتحية، مثلها ومثل كل الناس، لها أب وأم، وتصوّرت أنها جاءت من الشارع، وسألتها: "هل لك أم يا فتحية وهي التي ولدتك مثلما ولدتني أمي؟"، فقالت فتحية: "طبعاً يا ست سعاد"، فسألتها: "كل واحد في الدنيا له أب؟" فأجابت فتحية: "طبعاً كل واحد في الدنيا له أب، لأن الأم لا يمكن أن تحمل وتلد من دون الأب". انفرجت شفتا سعاد عن دهشة خفيفة، فقد خُيّل إليها أنها تعرف ذلك من قبل، لكن سؤالاً آخر تجمّع في عقلها: "وكيف تحمل الأم ويدخل الطفل في بطنها؟". ضحكت فتحية وأخفت فمها بيدها بالحركة نفسها التي تخفي بها عمتها فمها بطرف طرحتها حين تضحك، وقالت: "الأب ينام مع الأم، وتكبر بطن الأم لأن الطفل ينمو داخلها، وبعد تسعة شهور يولد الطفل، وكلنا أولاد تسعة يا ست سعاد".

مكتبة الفكر الجديد

يدور المفتاح داخل باب الشقة فتنتفض فتحية من الذعر: "ستي جاءت!" وتجري إلى المطبخ، ويدخل أمها وأبوها، وتأخذها أمها إلى سريرها لتنام وتسألها لماذا ظلت ساهرة حتى ذلك الوقت المتأخر، لكنها لا تقول لها إنها لعبت مع فتحية، وتغمض عينيها متظاهرةً بالنوم، وتظنّ أمها أنها نامت فتخرج من حجرتها على أطراف أصابعها.

الصباح كان يوم الجمعة، وكل يوم جمعة تركب العربة "الحنطور" وتذهب إلى البحر مع كل من في البيت بما فيهم فتحية. فتحية كانت تحمل السلة الكبيرة المليئة بالطعام وتمشي خلفهم، قدماها تغوصان في الرمل فتتخلف عنهم، وتستدير أمها من حين إلى حين وتحثّها على السير.

لم تكن سعاد تعرف السباحة بعد، لكنها كانت تلعب في الرمل مع أختها وأخيها، وأحياناً تقذف بنفسها في الماء لتسبح مثل الأطفال الآخرين، لكن يد أمها تشدّها من الخلف وصوتها العالي يرنّ في أذنيها: "ستغرقين وتموتين!".

ولم تكن تعرف بعد معنى الموت، وبمجرد أن تستدير أمها تقذف بنفسها في الماء، تحرك ذراعيها وساقيها بكل قوة، تودّ لو سبحت في الماء كما تطير العصفورة في الجو، لكن جسمها سرعان ما يثقل والماء يدخل أنفها وفمها فتمسك الأرض بيديها وتقف على قدميها ثم تلقي بنفسها مرةً أخرى وتحاول أن تحرّك ذراعيها وساقيها، وتكاد تسبح في الماء لكن يد أمها من الخلف تشدّها وهي تصرخ: "ستغرقين وتموتين!" فتجلس

مكتبة الفكر الجديد

إلى جوارها تحت الشمسية وتلعب بالرمل مع أختها وأخيها، وحين تشعر بالجوع تنادي أمها على فتحية فتُخرج لها من السلة شيئاً من الطعام.

كانت فتحية تجلس بالقرب منهم وإلى جوارها سلة الطعام، وحين تذهب أمها مع أبيها ليسبحا في البحر كانت تجري وتجلس إلى جوارها لتحكي لها الحكايات. وذات مرة رأتها تبكي فسألتها لماذا تبكي فقالت إنها تريد أن ترى أمها، ويُخيَّل إليها أنها لو مشت فوق هذا الشاطئ حتى نهايته فسوف تجد الطريق إلى قريتها، لكنها تخاف أن يكون الشاطئ طويلاً، أو أن لا تجد قريتها في نهايته، ويأتي الليل فتنام وحدها في الظلام وقد يسرقها أحد الذين يسرقون الأطفال، أو يطلع لها عفريت من العفاريت، لكنها تفكر في أن تبدأ السير في الصباح الباكر حتى تصل قريتها قبل غروب الشمس.

وفي اليوم التالي فتحت سعاد عينيها في الصباح فسمعت صوت أمها العالي يقول: "فتحية هربت"، فارتدى أبوها البدلة والطربوش وخرج ليبلّغ البوليس. وانتهى النهار وأقبل الليل دون أن تعود فتحية.

أغمضت سعاد عينيها لتنام، ورأت فتحية سائرة على الشاطئ الطويل حتى نهايته، وأدركها الظلام قبل أن تصل إلى أمها، ونامت وحدها على الشاطئ في سكون الليل، وجاء إليها أحد اللصوص وسرقها، أو خرجت "الجنية" من البحر وانقضّت عليها. سمعتها أمها في منتصف الليل تهبّ مذعورةً من نومها

مكتبة الفكر الجديد

وتصرخ: فتحية! فجاءت أمها إلى سريرها ورقدت إلى جوارها وهي تربت على ظهرها، وسألتها عمّا أفزعها، فحكت لها أن فتحية قالت لها إنها ستمشي على الشاطئ حتى نهايته، وهناك ستجد قريتها وأمها.

هبّت أمها من جوارها فجأةً وهي تقول: "هل قالت لك ذلك؟"، فردّت بصوتٍ خائف: "نعم"، فارتفع صوت أمها: "ولماذا لم تقولي لنا هذا ونحن نبحث عنها طول اليوم؟". أطبقت سعاد شفتيها في خوف، ورأت أمها تسرع إلى أبيها. خلع أبوها جلباب النوم وارتدى البدلة والطربوش وخرج.

وفي الصباح دخلت فتحية يمسك بيدها أحد رجال البوليس. كان جسدها يرتعد وعيناها مبللتان بالدموع. أمسك أبوها "الكرباج" الرفيع وسألها: "لماذا هربت؟". فتحت فتحية فمها لتردّ لكن صوتها لم يطلع، وضربها أبوها وهي تصرخ حتى كفّت عن الصراخ.

اختفت سعاد في حجرتها تحت السرير، كانت خائفة من أبيها، ولم تكن تتصور أن فتحية ستنجو من اللصوص وتعود إليهم، ولم تعرف كيف تركها اللصوص، وخيّل إليها أنهم تركوها لأنها خادمة فقيرة وليس لها أم، فاللصوص لا يسرقون إلا الشيء الثمين. وخيّل إليها أن أمها تخاف عليها لأنها شيء ثمين، فشعرت بنوع من الزهو الخفي، الذي سرعان ما تلاشى حين تذكّرت أنها كلما ارتفع ثمنها أصبحت معرضةً أكثر لأن يسرقها اللصوص. وخيّل إليها أنها تحسد فتحية، إلا أن هذا

الحسد سرعان ما تلاشى حين سمعت صراخها وهي تُضرب، وحمدت الله بينها وبين نفسها لأن الله لم يخلقها خادمة مثلها يضربها أبوها وتضربها أمها، وتمسح الأرض وتغسل الصحون وتنام على الأرض في المطبخ وتأكل بقايا طعامهم، وتعيش بعيدةً عن أمها ولا تراها كما ترى أمها كل يوم. وسمعت صوت أبيها الغاضب يناديها فخرجت من تحت السرير وهي ترتعد واقتربت من أبيها الواقف في الصالة طويلاً عريضاً، عيناه حمراوان بالغضب وأصابعه المرتعشة الطويلة تلتفّ حول "الكرباج"، وسمعته يقول: "لماذا لم تقولي لنا ما قالته لك فتحية؟" ولسعها بالكرباج على ذراعيها وساقيها وهو يقول: "لا تخفي عنّا أي شيء بعد اليوم"، فردّت بصوتٍ مرتعش "حاضر" وجرت إلى أمها تحتمي بها.

كانت تقفز من الفرح حين تسمع صوت صديقتها سميرة أو صديقها محمد يناديها، فتجري لتلعب معهما في الشارع وتشتري كيساً من اللبّ من الرجل الواقف بعربته. كانت تحب اللبّ، وأمها ترفض أن تعطيها أي نقود وتقول لها: "لا تأكلي شيئاً من الشارع وإلا وجعتك بطنك"، وفي كل مرة تملأ يدها باللب وتأكله ولا تشعر بأي وجع في بطنها، بل تشعر بطعمه اللذيذ المملح. وبعد أن ينتهي اللب تلعب مع محمد وسميرة "الاستغماية" أمام البيت، وتختفي تحت دكّة البواب حتى لا يراها محمد أو سميرة. وكان البواب رجلاً طويلاً أسود الوجه يرتدي عمامةً بيضاء كبيرة، وحين يرى أباها داخلاً أو خارجاً

ينهض من فوق دكّته ويرفع يده ويلامس بها رأسه وهو يقول: "صباح الخير يا بيه"... أدركت سعاد أن أباها رجلٌ محترم لأن البوّاب يناديه باسم "بيه" مثلما ينادي أبوها جدها ويقول له "يا علي بيه".

كانت سعاد ومحمد وسميرة يجلسون على الدكة الخشبية بجوار البواب، ويحكي لهم البواب عن قريته البعيدة قرب أسوان عند نهاية النيل، وأنه وهو طفل كان يسبح في النيل ويصطاد السمك ويشويه على النار. ورأتها أمها مرةً وهي جالسة إلى جوار البواب فشدّتها من يدها وأدخلتها البيت وهي تقول لها: "لا تجلسي مرة أخرى مع البواب، فهو مريض بصدره وقد تنتقل الجراثيم إليك عن طريق سعاله وأنفاسه".

لم تكن سعاد تعرف ما هي الجراثيم، لكنها تصورتها أشياء صغيرة ورفيعة كالثعابين، وأصبحت كلما اقتربت من الدكة التي يجلس عليها البواب تكتم أنفاسها واضعةً يدها على أنفها وفمها.

وذات يوم، وكانت عائدةً من المدرسة، أخذت تسير في الشارع بخطوتها السريعة التي تكاد تشبه الجري، تريد أن تصل إلى البيت قبل أن يخطفها أحد الذين يسرقون الأطفال. والمسافة بين المدرسة والبيت تبدو لها طويلة، والشارع واسع عريض لا أول له ولا آخر، ووجوه الناس تبدو لها غريبة، وعيونهم حين تنظر إليها مخيفة، فتحاول عدم النظر إليها، بل تنظر أمامها كما قالت لها أمها، وإذا ابتسم لها أحد أو حاول

مكتبة الفكر الجديد

أن يكلّمها، لا تردّ عليه، لأن هؤلاء اللصوص لهم طرق عديدة في جذب الأطفال إليهم.

وبينما هي سائرة بخطوتها السريعة، وعيناها الشاخصتان تتحركان إلى الأمام، لا تتحركان إلى اليسار أو اليمين أو الخلف، سمعت من خلفها صوتاً غريباً مفزعاً كصوت الرعد، فاستدارت إلى الخلف بسرعة بحركة غريزية فرأت الشارع وقد امتلأ برجالٍ لا عدَّ لهم، يدبّون على الأرض بأحذيتهم بعنف، عيونهم متّسعة جاحظة في غضب، وهم يلوّحون بقبضات أيديهم في الهواء ويصرخون بصوتٍ واحد بكلمات لم تفهمها. ارتعد جسدها من الخوف وظنّت أنهم سينقضون عليها، فجرت مذعورةً حتى رأت باب بيت مفتوح فدخلت واختفت وراءه، فسمعت من خلفها صوت امرأة تقول لها: "لا تخافي يا ابنتي، إنهم لن يفعلوا بكِ شيئاً". لكن كلامها لم يطمئنها، بل إن صوتها الغريب زاد من فزعها وظنّت أنها ستخطفها، لكن جسدها ظل متجمداً وراء الباب، عاجزاً عن الحركة، مبللاً بالعرق. وظلت مختفيةً وراء الباب حتى ابتعدت أصوات الرجال، فخرجت من مخبئها وانطلقت تجري كالصاروخ حتى وصلت إلى البيت وهي لا تزال ترتعد. سألتها أمها عمّا حدث فحكت لها ما رأته، فضحكت أمها وقالت: "إنها مظاهرة ضد الإنكليز".

كانت هذه هي المرة الأولى التي تسمع فيها كلمة "الإنكليز"، فسألت أباها: "من هم الإنكليز؟"، فقال لها:

"الإنكليز أعداؤنا"، فسألته: "وهل الإنكليز ناس مثلنا؟"، فقال أبوها: "إنهم ناس مثلنا ولكن وجوهم بيضاء محمرّة بالدم، وهم كفرة وليسوا مسلمين مثلنا، ويسرقون أموال بلدان ويطلقون الرصاص علينا حين نقول لهم: اخرجوا من بلدنا واذهبوا إلى بلدكم".

أكثر الأشياء من حولها كانت تبعث على الخوف، والعالم خارج البيت تكتنفه المخاوف والمخاطر، وأشدّ ما كان يخيفها في ذلك الوقت هو أن تتوه في الشارع ولا تجد أباها ولا أمها. لم يعد أبوها يمسك يدها وهو سائر إلى جوارها وعيناها تظلان معلّقتين بأبيها تخشى أن يتوه منها في زحام الشارع، وساقا أبيها كانتا طويلتين وخطوته واسعة، ولا يمكنها أن تلحق بأبيها إلاّ إذا جرت، خطوة أبيها أسرع من خطوتها، فتتشبّث عيناها بظهر أبيها، تخشى أن تفقده بين ظهور الناس. وكان الشارع واسعاً مليئاً بالناس، وظهور الرجال من الخلف تشبه ظهر أبيها، ويضيع منها أبوها في الزحام، وعيناها تتّسعان بالذعر كأنما هي تغرق في بحرٍ كبير ولا أحد يعرفها ولا أحد ينقذها، ويخيّل إليها أن عيوناً غريبة كثيرة تحاصرها فتجري وهي تصرخ: بابا... يسمع أبوها صرختها من الخلف فيلتفت بسرعة، وما أن تلتقط عيناها وجه أبيها حتى تنطلق إليه وتمسك يده ولا تدعها تفلت منها مرةً أخرى.

وعلى شاطئ البحر لم تعد أمها تمسك يدها، وصارت تتركها تسبح في الماء أمامها، لكنها لم تكن تبتعد عنها كثيراً،

مكتبة الفكر الجديد

وإذا ابتعدت فإن عيناها تظلان معلّقتين بوجهها وهي جالسة تحت الشمسية، تخشى أن يضيع وجهها بين الوجوه وتفقد مكانها. وإذا نزلت الماء فهي تظل قرب الشاطئ، تحرك ذراعيها وساقيها في الماء ثم تقف على قدميها بسرعة لتطمئن إلى أن الأرض لا تزال تحت قدميها. وفي كل مرة تخشى أن تقف على قدميها فلا تجد الأرض تحتهما وتغرق في البحر.

في سريرها، قبل أن تنام، لم تكن تنام إلاّ وهي ممسكة بيد أمها تلفّ أصابعها حول أصابعها، وكلّما غلبها النوم وارتخت أصابعها من حول أصابعها نهضت أمها من جوارها بهدوء، ولكنها سرعان ما تسمع صوت السرير يهتز فتدرك أن أمها تتركها فتقبض بأصابعها على يدها مرةً أخرى ولا تدعها تفلت منها، فتغنّي لها أمها بصوتٍ خافت، أو تحكي لها حكاية "أم طرطور أحمر"، حتى يغلبها النوم تماماً. وحين تسحب أصابعها من يدها فتظل أصابعها مرتخية ولا تقبض على يدها، تنهض من سريرها وتغطّيها وتطفئ النور وتذهب إلى حجرتها.

لم تكن تحس بها وهي تتركها، لكنها كانت تحلم أن أمها ضاعت منها في الشارع ولم تجدها، وأنها ظلت تائهة في الشوارع تبكي حتى رأت وجه أبيها فقفزت من الفرح وأمسكت يده. لكن يد أبيها أفلتت من يدها وضاع أبوها في الزحام، وحاصرتها من كل جانب عيون غريبة واسعة وأفواه غريبة واسعة، فارتعدت وتراجعت إلى الخلف لتختفي في البيت، ولكنها لم تجد أمها في البيت، وإنما امرأة غريبة شعرها

مكتبة الفكر الجديد

طويل وفمها واسع كفم الغولة، وقالت لها إن أمها ماتت، فتحاول أن تصرخ لكن صوتها لا يخرج، ومن شدة الفزع تصحو من النوم فجأةً فتجد نفسها وحدها في الظلام، فتنادي أمها بصوتٍ عالٍ: ماما.... وحين ترى وجه أمها تدرك أنها كانت تحلم وتفرح لأن أمها لم تمت، وفي الصباح تنسى الحلم تماماً كأنه لم يكن.

في المدرسة، كانت تحب الفسحة ولا تحب الفصل. فهي في الفسحة تجري وتلعب وتحرك ذراعيها وساقيها، لكنها في الفصل تجلس ساكنة وأمامها الورقة والقلم، وتمر المدرّسة بين الصفوف وأصابعها الطويلة الرفيعة تلتفّ حول العصا، تلسع بها أصابع أي طفل يتكلم أو طفلة تتكلم بغير أذن أو تتحرك من مقعدها أو تضحك، وتقول لهم إن الضحك بلا سبب قلة أدب. وكلما خطر في عقلها شيء مضحك أطبقت شفتيها أو أخفت وجهها داخل الكراسة. وكانت تخطر لها أشياء مضحكة، وأحياناً تضحك بلا سبب، لمجرد أن يلتفت إليها محمد أو سميرة، أو حين يقع قلمها على الأرض ويحدث صوتاً عالياً، أو إذا عطس أحد التلاميذ بصوتٍ عالٍ، أو إذا صدرت عن معدة جارها تلك الأصوات التي تشبه مواء القطط، أو إذا أطلقت أمعاء أحدهم الهواء بذلك الصفير المكتوم.

وأشدّ ما كانت تكرهه في الفصل هو أن تجلس في مكانها ثابتة بلا حراك، وأحياناً كانت ترفع إصبعها وتقول للمدرّسة إنها تريد أن تذهب إلى دورة المياه، فتأذن لها بالخروج،

مكتبة الفكر الجديد

فتنهض من مقعدها مسرعةً وتجري إلى الفناء، فتشعر بلذة كبيرة وهي تحرك ذارعيها وساقيها وتفتح فمها وتملأه بالهواء والضحك، وتتساءل بينها وبين نفسها: هل من الضروري أن يكون للحركة سبب وللضحك سبب؟ لماذا يحرمونها من الضحك ومن الحركة التي تبعث في جسدها اللذة؟ أليست اللذة سبباً كافياً للضحك أو الحركة؟

لكنها بدأت تدرك أنّ اللذة القديمة التي كانت تحس بها حين تجري أو تضحك لم تعد كما كانت، وأنّ إحساساً بطيئاً غامضاً أصبح يساورها بأن اللذة وحدها ممنوعة أو محرّمة، ولا بدّ من سبب آخر غير اللذة لتبرير الحركة أو الضحك أو اللعب، وكانت قد بلغت السابعة من عمرها وجاء شهر رمضان. أبوها يقول إنه بدأ الصيام والصلاة حين كان في مثل عمرها، وبدا لها الصيام لعبةً جدية أحسن ما فيها أن النظام ومواعيد النوم واليقظة المفروضة عليها تنقلب رأساً على عقب. فالليل الذي كان للنوم أصبح للسهر والأكل، والشوارع والبيوت كلها تظل ساهرة والأنوار مضاءة والأغاني تنبعث من الراديو، ويقبل المسحّراتي يدقّ طبلته ليوقظ النائمين، وتجهّز أمها مائدة السحور فترى أنواع الأطعمة اللذيذة المتعددة التي لم ترها من قبل، وأنواعاً جديدة من الحلوى والكنافة والقطايف، ولفائف قمر الدين، والجوز واللوز وعين الجمل، وصواني الأرز باللحم المحمر. وبينما هي تلتهم الطعام سألت: "لماذا يسمّى شهر رمضان شهر الصيام؟" فقال لها أبوها: "لأن الناس يصومون عن الأكل أثناء النهار".

مكتبة الفكر الجديد

– ولماذا يصوم الناس يا أبي؟

– لأن الله أمرهم بالصيام يا ابنتي.

– ولماذا أمرهم الله بالصيام يا أبي؟

– لأن الله يريد منهم أن يجرّبوا الجوع ليدركوا كيف يتألم الفقراء.

كانت سعاد قد ملأت معدتها بالأكل فقالت لأبيها:

– ولكنني يا أبي لا أشعر بالجوع وأحس أنني آكل وأشبع أكثر من أي وقت آخر.

كان فم أبيها في تلك اللحظة مملوءاً بالطعام، ويده تقبض على قطعة لحم محمّرة وتوشك أن ترفعها إلى فهمه، فاهتزّت يده قليلاً قبل أن تقترب من فمه، ولم يستطع أن يفتح فمه ليردّ على سؤال ابنته، فانتظر حتى مضغ الطعام وابتلعه ثم قال لها:

– ولكننا نأكل يا ابنتي بالليل فقط ونصوم النهار كله طوال شهر رمضان، أما في الشهور الأخرى فنحن نأكل بالنهار.

قالت سعاد:

– ونصوم بالليل يا أبي، لأننا ننام بالليل ولا نأكل كما نأكل الآن.

سكت أبوها لحظةً أخرى ثم قال لها:

– هذا صحيح يا سعاد، ولكننا لا نشعر بالجوع بالليل لأننا لا نحسّ أثناء النوم، ولكن في النهار نحسّ بالجوع، ونحسّ بالعطش أيضاً في الأيام الحارة.

خُيّل إليها أن الفقراء يمكن أن يجوعوا ولكنهم لا يمكن

مكتبة الفكر الجديد

أن يعطشوا لأن الماء كثير جداً وبالمجّان، في الصنابير وفي البحر وفي النيل وفي الترع، فسألت بشيء من الدهشة: "وهل يعطش الفقراء أيضاً يا أبي؟"، لكن أباها كان قد أنهى طعامه فنهض، ولم تبقَ إلا أمها التي كانت تختم طعامها بقطعة من الكنافة المحشوة بالزبيب واللوز، فسألتها: "هل يعطش الفقراء يا أمي؟"، فقالت أمها وفمها مملوء:

– إنهم يجوعون فقط، ولكن الله فرض علينا الجوع والعطش في رمضان لنشعر بالألم ونشفق على الفقراء ونحبهم ونعطيهم شيئاً مما أعطانا الله، ونحمد الله على ما أعطانا من طعام.

– وهل الله هو الذي أعطانا الطعام يا أمي؟

– نعم يا ابنتي، الله هو الذي يرزق ويعطي من يشاء ولا يعطي من يشاء.

– ولماذا أعطانا الله يا أمي؟

– لأن الله يحبنا يا سعاد.

شعرت سعاد بنوعٍ من السرور وحمدت الله بينها وبين نفسها لأن الله يحبهم ولم يجعلهم فقراء يشحذون في الشوارع مثل ذلك الرجل الأعرج العجوز الذي تراه كل يوم وهي ذاهبة إلى المدرسة وتخاف منه، وخيّل إليها أن الله يكره الفقراء، وإذا كان الله يكرههم ولم يعطهم شيئاً فلماذا يريد منا أن نحبهم ونعطيهم ما أعطانا الله؟

كان أبوها قد عاد إلى المائدة ليتناول الحلوى بعد أن غسل

مكتبة الفكر الجديد

يديه من أثر اللحم المحمّر، وسمعها وهي توجّه أسئلتها لأمها، فقال لها:

– اسمعي يا ابنتي، الله له حكم كثيرة في هذه الدنيا، وقد خلق الله كل شيء لحكمة معينة، وخلق الخير والشر، وخلق الفقر والغنى، إنه لا يكره الفقراء ولكنه خلقهم ليمتحن الأغنياء ويرى هل سيعطون الفقراء أم لا.

– وهل نحن أغنياء يا أبي؟

ابتسم أبوها وهو يقول:

– نحن لسنا أغنياء ولسنا فقراء ولكننا مستورون والحمد لله.

– ما معنى "مستورون" يا أبي؟

– معناها أنّ ما عندنا يكفينا والحمد لله.

خُيِّل لسعاد أن ما عندهم يكفيهم فقط وليس لديهم ما يعطونه للفقراء، وأن الله فرض الصيام على الأغنياء فقط ليشعروا بجوع الفقراء، لكن أباها قال لها إن الله فرض الصوم على جميع الناس، الأغنياء والفقراء والمتوسطين مثلهم، وعلى كل إنسان أن يزكّي من أمواله للفقراء بما يستطيع أن يدفع.

– ولكن لماذا يفرض الله على الفقراء أن يصوموا في شهر رمضان وهم يشعرون بالجوع في الشهور الأخرى وليس عندهم طعام يعطونه للفقراء؟

سكت أبوها لحظةً طويلة ثم قال:

– إن الصيام يا ابنتي ليس له فرض واحد، وهذه هي حكمة لله،

مكتبة الفكر الجديد

والفقراء يصومون ليتعلموا الصبر أكثر وأكثر ويذكروا الله، ولأن الصيام أحد أركان الإسلام، وهو واجب على كل مسلم مثله مثل الصلاة والزكاة وحج بيت الله لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً.

لم تستطع سعاد أن تفهم هذه الكلمات الأخيرة التي قالها أبوها، لكنها كانت قد عرفت أن هناك كلمات وآيات يجب أن تُحفظ عن ظهر قلب، وليس من الضروري أن تُفهم بالعقل، لأن عقل الإنسان أصغر من عقل الله ولا يمكن أن يفهم كل حكم الله، وأدركت أن هناك أشياء سوف تفهمها حين يكبر عقلها وتصبح امرأة كبيرة مثل أمها.

إلا أن أهم ما كان يشغلها في ذلك الوقت هو أن النهار يصبح طويلاً في شهر رمضان، والحر يزداد، والعطش يزداد، وتحس لسانها جافاً داخل فمها وشفتيها ملتهبتين بعد أن تجري وتلعب في الشمس. وكانت قد سمعت من أبيها أن الغرغرة أو مضمضة الفم بقليل من الماء لا تفسد الصيام شرط ألاّ يبتلع الإنسان شيئاً من الماء. لذا أصبحت، حين يشتد جفاف لسانها وفمها، تقف أمام الحوض وتملأ فمها بالماء ثم تبصقه وتكرر ذلك عدة مرات، وفي كل مرة تبتلع قليلاً من الماء مع الهواء الذي تتنفسه وتتظاهر أنها نسيت أنها صائمة أو أن عضلات حلقها انقبضت رغم إرادتها، ثم تبصق بقية الماء وهي تردّد: أستغفر الله... أستغفر الله...

وفي يوم من الأيام، وقبل أن يضرب مدفع الإفطار، رأت أمها في المطبخ، ولمحتها وهي تقذف داخل فمها شيئاً وتبتلعه،

مكتبة الفكر الجديد

فأدركت أن أمها تخدع الله كما تخدعه هي، وشعرت بنوعٍ من الراحة، ولم تكشف سر أمها لأحد. لكن أمها ضربتها تلك الليلة لأنها لم تسمع كلامها ولم تغسل قدميها قبل النوم، فنامت وقد قررت أن تكشف سرها لأبيها في الغد. لكن أباها قال لها إن أمها تفطر بضعة أيام في الشهر بسبب مرض معين، فذعرت سعاد وتصورت أن أمها مريضة وسوف تموت، لكن أباها طمأنها وقال إن هذا المرض يصيب كل النساء وكل البنات بعد سن معينة، فسألته إن كانت جدتها وعمتها وخالتها أيضاً يصيبهن هذا المرض، فقال أبوها: بالطبع، ثم سألت: وهل أنا أيضاً؟ فقال أبوها إنها لا تزال صغيرة، ولكن بعد بضع سنوات سيصيبها المرض كل شهر مثل جميع النساء، فأصابها فزعٌ شديد وسألت: وهل الرجال أيضاً يصابون؟ وهل أخوها سيصاب حين يكبر؟ فأكّد لها أبوها أنه لن يصاب حين يكبر لأنه ولد وليس بنتاً.

حزنت سعاد وحسدت أخاها لأنه خُلق ولداً وليس بنتاً، وشعرت أن الله يحبه أكثر منها لأنه لن يصيبه بهذا المرض حين يكبر. ولم تكن تعرف بعد ما هو هذا المرض، لكنها ظنت أنه ليس مرضاً بسيطاً مثل البرد الذي يصيبها أحياناً، وإنما مرض آخر غامض، وهذا الغموض يُشعرها بأنه سر خطير. وظل عقلها قلقاً يبحث عن السر إلى أن عرفته من زميلتها سميرة، وبدأت تلاحظ بقع الدم أحياناً على ملابس أمها من الخلف، لكنها ظلت لا تفهم ما سر ذلك المرض الذي يجعل أمها تنزف الدم

ولا تصوم ولا تصلي.

وعلّمها أبوها الوضوء والصلاة، فأصبحت تتوضأ خمس مرات في اليوم وتصلّي خمس مرات: الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، وحفظت عدد الركعات في كل صلاة، وأن مجموع الركعات في اليوم سبعة عشر ركعة. وأثناء الوضوء تغسل وجهها ثلاث مرات، وأذنيها ثلاث مرات، وتمسح رأسها بيدها ثلاث مرات، وتمضمض فمها ثلاث مرات، وتغسل ذراعيها وساقيها وقدميها ثلاث مرات، على أن تردّد وهي تغسل كل عضو عبارة "أستغفر الله العظيم من كل ذنبٍ عظيم" ثلاث مرات.

وتدرّبت سعاد على الصلاة، فهي تبدأها بعبارة "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" ثم تقرأ الفاتحة وإحدى الآيات القرآنية التي حفظتها مثل "قل أعوذ برب الناس" أو "قل هو الله أحد"، وتنحني بظهرها إلى الأمام دون أن تثني ركبتيها، ثم ترفع ظهرها وترفع ذراعيها إلى أعلى لتصبح يداها في مستوى رأسها، وتقول "الله أكبر"، ثم تنحني وتثني ركبتيها وتركع حتى تلامس جبهتها الأرض وهي تقول "سمع الله لمن حمد"، وترفع رأسها من فوق الأرض لكنها تظل في وضع السجود، وتقرأ إحدى الآيات، ثم تنهض، وتكرر هذه الركعات حسب كل صلاة، وقبل أن تنهي الصلاة وهي ساجدة تلتفت ناحية اليمين وتقول "السلام عليكم ورحمة الله"، ثم تلتفت ناحية اليسار وتقول "السلام عليكم ورحمة الله".

مكتبة الفكر الجديد

لم تكن تفهم بعد معنى الكلمة التي ترددها لكنها حفظتها عن ظهر قلب، وعرفت من أبيها أنها حين تصلي تصبح واقفة بين يدي الله وعليها أن تكون خاشعة خافضةً رأسها واضعةً يديها فوق صدرها، وعليها أن تطرد الشيطان من رأسها حتى لا يوسوس لها بأي شيء أثناء الصلاة، فالشيطان يلازم الإنسان كظله ولا بدّ من طرده أثناء الوقوف بين يدي الله، ولا يصحّ للإنسان أن يجمع بين الشيطان والله في وقت واحد، لأن صوت الشيطان قد يصرف ذهن الإنسان عن صوت الله. وأثناء الصلاة لا بدّ من أن يفرغ الإنسان ذهنه بأكمله لله سبحانه وتعالى، ليسمع صوته ويحسّ بوجوده ووجود الملائكة من حوله، وعلى الأخص هذين الملاكين اللذين يقفان عن يمينها وعن يسارها ليحفظاها أثناء الصلاة من الشيطان وغيره من الأرواح الشريرة، وعليها أن تودّعهما في ختام الصلاة فتلتفت إلى كلٍّ منهما وتقول له: السلام عليكم ورحمة الله!

استمعت سعاد إلى أبيها وهو يتحدث عن الله، وصوت أبيها حين يتحدث عن الله يصبح منخفضاً مهيباً له رهبة تملأ قلبها بإحساسٍ غامض من الخوف. وحين تبدأ الصلاة وتقول "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" لا تعرف إذا ما كان الشيطان قد طُرد أم لا، فتردّدها عدة مرات لتطمئنّ إلى أنها طردته ولم يبقَ له أثر. وتسري في جسدها قشعريرة حين يُصوِّر لها عقلها أن الله أصبح واقفاً أمامها، وأنّ صوته يمكن أن يصل إليها، ويخيَّل إليها وهي تسجد أنّ صوتاً ما يهمس لها، فترتجف من الخوف،

مكتبة الفكر الجديد

فهي لا تعرف هل هو صوت الله أم أن الشيطان ما زال ملازماً لها كظلّها، وظلت متحيرة لا تعرف كيف تفرّق بين صوت الله وصوت الشيطان، فسألت أباها يوماً عن ذلك فقال لها أبوها إن صوت الله يأمرها بالطاعة وصوت الشيطان يأمرها بعدم الطاعة، وأن الذي يطيع أباه وأمه يذهب إلى الجنة، والذي يطيع الشيطان يُحرق في نهار جهنم، وأن الله يراقب الإنسان ويراه في كل لحظة من النهار والليل، ولا يمكن للإنسان أن يكذب على الله لأن الله يعرف كل شيء ولا يمكن لأحد أن يخفي عنه شيئاً.

ازداد فزع سعاد بعد هذه الفكرة، لأنها تعرف أنها تخفي عن الله أشياء كثيرة، وكانت تظن أن الله لا يراها، ولا أحد يراها. أما الآن فهي لا تعرف ماذا تفعل، بل لا تعرف ما الذي سيفعله بها الله بسبب ما مضى وبسبب ما اقترفته من ذنوب كثيرة، وهي لم تفعل هذه الذنوب إلا لأنها كانت تظن أنها حين تكون وحدها تكون وحدها، وأنّ أحداً لا يراها حين تكون في حجرتها المغلقة، أو حين تصعد إلى الفصل وتفتح حقيبة محمد لتأكل الكعكة قبل أن يدخل أحد، أو حين تخفي يدها باللبّ دون أن يراها البائع، أو حين تختفي تحت السرير مع أختها وأخيها ويلعبون، أو حين تبتلع بعض الماء قبل أن يضرب المدفع في شهر رمضان.

لكنها أصبحت الآن تدرك أنها لا تكون وحدها أبداً، وأن الله يراها في كل لحظة، وأنه رآها في كل مرة أكلت فيها كعكة

مكتبة الفكر الجديد

محمد، ورآها في كل مرة ملأت يدها باللب، ورآها في كل مرة تحت السرير، ورآها في كل مرة ابتلعت فيها الماء قبل المدفع.

إلا أن عقلها ظل لفترة من الوقت عاجزاً عن تصديق أنها حين تكون وحدها لا تكون وحدها، وأن عينين أخريين تريانها مع أنها لا تراهما. لم تستطع أن تدرك كيف يمكن لتلكما العينين أن تخترقا السقف والجدران والباب وتصل إليها وهي جالسة وحدها في حجرتها أو تحت السرير، وهل يمكن أن يكون الله مثل الأرواح الشريرة والعفاريت التي تدخل من ثقوب النافذة وشقوق الباب؟ وتصورت أول الأمر أن الله قد رآها وهي تسرق اللب لأنها كانت واقفة في الشارع بجوار عربة اللب ولا يفصلها عن السماء سقف، ويمكن لله وهو في السماء أن يراها بسهولة. لكن أسئلة كثيرة خطرت لعقلها: كيف يقف الله في السماء؟ وهل هو يقف أم يجلس؟ وهو في كلا الحالين، سواء الجلوس أو الوقف، لا يستطيع أن ينظر إلى الأرض، ولا بدّ له أن ينام أو ينبطح ليتّجه وجهه إلى أسفل ليستطيع أن يرى الأرض ويراقب الناس وهم سائرون في الشوارع أو واقفون بجوار عربات اللب. وكيف يمكن أن يراقب كل هذا العدد الكبير من الناس في كل تلك الشوارع الطويلة الواسعة الممتدة بلا نهاية؟ وخيّل إليها أن الله لم يرها حين سرقت اللب لأنه كان مشغولاً بغيرها من الناس في الشارع الواسع، أو لأن هناك عربات لبّ أخرى، وربما كانت محظوظة فاتّجهت عينا الله إلى عربة أخرى في اللحظة التي ملأت بها يدها باللب!

مكتبة الفكر الجديد

إلا أن كل هذه التساؤلات لم تجد الإجابة عنها في عقلها، وأصبحت تتخوّف من أن يراها الله حتى وهي داخل دورة المياه والباب مغلق عليها، فصارت تتحرّج حين تخلع السروال لتبول متصورةً أن عيني الله تريانها، بل كان يخيّل إليها أن الله يقف وراءها وتكاد تحسّ أنفاسه فوق عنقها من الخلف، فتسري في جسدها قشعريرة وتلتفت إلى الوراء بسرعة متصورةً أنها ستجد شخصاً خلفها، لكنها لا تجد أحداً. وسألت أباها مرةً: "كيف ينفذ الله من خلال الجدران والباب؟"، فقال لها أبوها: "إنّ الله روح فقط وليس له جسد، أما الإنسان فله روح وجسد". وخيّل إليها أن الإنسان يملك أشياء أكثر ممّا يملكها الله، لأن الله له روح فقط أمام الإنسان فله روح وجسد، لكن أباها أمرها أن تستغفر الله ثلاث مرات، فالله يملك السموات والأرض ويملك الكون كله بما فيه الناس، أما الإنسان فهو أحد مخلوقات الله ولا يملك شيئاً، بل لا يملك حياته لأن الله يستطيع أن يميته في أي لحظة شاء.

وفي كل مرة تسمع أباها يتحدث عن الله يزداد خوفها ويزداد إحساسها بالذنب، وأن الله رآها وهي تفعل كل تلك الذنوب السابقة، وأنها لا محالة ذاهبة إلى النار، ولن تنجو من عقاب الله مهما فعلت ومهما صلّت وصامت، لأن الله رآها وانتهى الأمر، ولا يمكن لها أن تخدع الله بذلك السجود والرجوع، فالله يعرف أنها مذنبة وأنها تستحقّ العقاب وسوف يوقع عليها العقاب سواء صلّت أم لم تصلِّ.

مكتبة الفكر الجديد

أعطاها هذا اليأس راحةً كبيرة، فانقطعت بضعة أيام عن الصلاة، ونسيت الكثير مما قاله أبوها، وتخفّف قلبها من مشاعر الخوف والذنب التي كانت تلازمها، وعادت تستسلم للذائذ والأشياء التي تحبها، لكنها ظلت تشعر بالذنب كلّما مدّت يدها لتملأها باللب، وتحسّ أن الله قد يراها حين تدخل تحت السرير. لكن الإحساس بالذنب سرعان ما يفارقها، ويخيّل إليها أن الله لم يرها، وعقلها لا يزال عاجزاً عن تصوّر كيف يمكن لله أن يراها، أو أنها تصورت ذلك من قبل ولم يعد هناك أي أمل في دخول الجنة مهما فعلت، وبدت لها الآخرة بعيدة جداً وموتها بعيداً أو مستحيلاً، فلم يكن عقلها قادراً على إدراك أنها يمكن أن تموت.

لاحظ أبوها انقطاعها عن الصلاة والصوم فسألها عن السبب، لكنها لم تستطع أن تقول لأبيها إنها اقترفت ذنوباً كثيرة وأن الله رآها وسوف يعاقبها، فقالت إنها لا تصلي لأنها لا تعرف كيف تطرد الشيطان، ولا تعرف كيف تفرّق بين صوت الله وصوت الشيطان، وهي تحسّ أنها مذنبة وسوف تدخل النار وصلاتها لن تنفع. فقال لها أبوها إنها ما زالت صغيرة السنّ ولم تقترف أي ذنوب خطيرة بعد، وأن كل الناس تخطئ، وأن الإنسان بطبيعته يميل إلى الشر وارتكاب الذنوب، لكن الله يغفر الذنوب لمن يصلي ويستغفره، وقد خلق الله الصلاة ليعطي الإنسان فرصةً ليطلب مغفرة الله، والله غفور رحيم.

أحست سعاد بالراحة وعادت إلى الصلاة، وفي كل مرة

تتوضأ فيها ترفع صوتها عالياً وهي تردّد: "أستغفر الله العظيم من كل ذنبٍ عظيم"، وفي بدء الصلاة تردّد: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، وتسري في جسدها قشعريرة حين يصوّر لها عقلها أن الشيطان ما زال يلازمها وأنها لن تعرف صوت الشيطان من صوت الله. لكنها بدأت تدرك أن صوت الشيطان هو ذلك الذي يهمس لها بالأشياء اللذيذة التي تحبّها، مثل سرقة اللب، أو ممارسة تلك اللعبة تحت السرير، أو التهام كعكة محمد، أو ابتلاع الماء قبل موعد الإفطار. وخيّل إليها أنها كلما أحسّت بلذةٍ ما فهذا دليل على أنها فعلت شيئاً بأمر الشيطان وليس بأمر الله، ولكن إحساسها بالذنب سرعان ما يتلاشى بعد أن تصلّي وتستغفر الله.

وبينما هي تتناول طعام الغداء ذات يوم، وكانت أمها أعطتها نصف حمامة محشوة بالفريك، وهي تحب الحمام المحشو بالفريك أكثر من أي طعام آخر، وكانت جائعة تلتهم الطعام بلذةٍ شديدة، فجأةً تذكرت الشيطان واعتقدت أنه هو الذي يوحي إليها بهذه اللذة، فنهضت إلى المطبخ وأعطت نصف الحمامة لفتحية، ولأول مرة في حياتها استطاعت أن تقاوم اللذة التي وسوس لها بها الشيطان، كما أنها أعطت فتحية شيئاً مما أعطاها الله. ولم تستطع أن تكتم خبر هذا الانتصار عن أبيها، لكن أباها قال لها إن الله لم يقل لها أن تعطي طعامها للخادمة، فالخدم لهم طعامهم الذي يعطيه الله لهم وأصحاب البيت لهم طعامهم، وقال إن لذة الأكل ليست محرمة، فسألته

مكتبة الفكر الجديد

سعاد عن اللذائذ المحرمة حتى تقاومها، فسكت أبوها لحظةً ثم قال لها إنها ستعرف هذه الأشياء حينما تكبر، وأن لذة الأكل ليست ضمن اللذائذ المحرمة.

منذ ذلك اليوم أصبحت تأكل بحرية، بل وبشراهة أيضاً، فقد أيقنت أن لذة الأكل مباحة، تمارسها دون أن تشعر بالذنب الذي كان يلازمها حين تشعر بلذة أخرى.

ظلت سعاد تشعر بتلك اللذة العارمة حين تركب القطار وتحسّ بحركته السريعة وهو مندفع إلى الأمام، يصفر وينفث الدخان الكثيف وعجلاته تصطك بالقضبان، وأعمدة السواري تجري متراجعةً إلى الخلف بسرعةٍ جنونية. وكانت تقفز على مقعدها من الفرح متصورةً أنهم مسافرون إلى بيت جدتها وأنها ستلعب في الحقل مع زكي وأولاد عمتها، لكن أمها قالت لها إنهم ليسوا مسافرين إلى بيت جدتها في كفر الباجور، ولا إلى بيت جدها في العباسية، ولكن أباها انتقل من الإسكندرية إلى بلدة أخرى اسمها دسوق.

لأول مرة يلتقط عقلها تلك الأسماء: كفر الباجور، العباسية، الإسكندرية، دسوق، وسألت أمها: "هل دسوق فيها بحر مثل الإسكندرية؟"، فقالت لها أمها إن دسوق ليس فيها بحر ولكن فيها نيل مثل النيل في فكر الباجور، وفيها حقول، وفيها بيوت جميلة نظيفة وليست مثل بيوت كفر الباجور.

فرحت سعاد بحجرتها الجديدة في البيت، وكانت لها نافذة كبيرة عليها قضبان حديدية لكنها كانت تطل على حقل كبير

تسطع فيه الشمس على سنابل القمح الذهبية، وتحوطه أشجار كثيفة تطير فوقها العصافير، وحمام أبيض يقف على أسطح البيوت المنخفضة، وبطّ يعوم في فناء الماء الصغيرة المجاورة للحقل.

وفي الحقل كان هناك ولد اسمه صبري، يرتدي جلباباً طويلاً فيه خطوط حمراء وبيضاء، يشمّر الجلباب ويرفعه حتى بطنه ثم ينزل بساقيه في القناة ويصنع بيديه في الطين فتحةً كبيرة يندفع منها الماء من القناة إلى الحقل ويروي الزرع، وفي بعض الأحيان يمسك الفأس الصغيرة ويضرب الأرض بقوة.

أصبحت سعاد تنزل إلى الحقل تراقب صبري وهو يحرك ذراعيه بقوة ويضرب الأرض بفأسه، وتطلب سعاد من صبري أن يعطيها الفأس لتفحت الأرض مثله، لكن لا يمكنها أن تفحت الأرض بالفستان والحذاء، فتخلع سعاد حذاءها بسرعة وتشمّر فستانها وتأخذ الفأس من صبري وتضرب الأرض.

حركة ذراعيها وهما ترتفعان في الهواء ثم تنخفضان بقوة تشعرها بلذة عجيبة، وملمس الطين تحت قدميها الحافيتين يبعث في جسدها نشوة، وساقاها وهما تجريان بأقصى سرعتها تسابقان الحمام وهو يطير، وكأنها على وشك أن تطير في الجو، وصدرها ينفتح ويمتلئ بالهواء المنعش، وسنابل القمح الذهبية تهتز وترقص تحت الشمس، وحركة جسمها لا يعوقها شيء، والحركة تصل إلى كل خلية من جسدها وعقلها في وقت واحد فإذا بكيانها كله يتحرك كأنه خلية واحدة مترابطة الأجزاء

مكتبة الفكر الجديد

في انسجام كامل مع ذراعيها وساقيها ومع أجنحة الحمام وهو يطير وسنابل القمح وهي تهتز وترقص.

أكثر ما كانت تحبه في دسوق هو النزول إلى الحقل، وأشد ما كانت تكرهه هو الذهاب إلى المدرسة والجلوس في الفصل. الساعة وراء الساعة تقضيها وهي جالسة إلى درجها الخشبي، جسدها محشور بين لوحين من الخشب، واحد منهما يضغط على ظهرها من الخلف والثاني يضغط على بطنها من الأمام، ومن تحتها المقعد يضغط على إليتيها، وقدماها مرفوعتان تحت الدرج على عمود خشبي. والمدرّس واقف عند السبورة يشير بعصاه الطويلة المدببة، أو يتمشى بين صفوف التلاميذ وعصاه خلف ظهره تهتز، وزر طربوشه من الخلف يهتز، فتطبق سعاد شفتيها حتى لا تفلت من بينهما الضحكة، ويهتز جسدها بالضحك المكتوم، فيلسعها المدرّس على ظهرها بالعصا ويقول: "اجلسي على بعضك ولا تهتزي كالزنبلك!". أمامها كانت تجلس تلميذة اسمها "مختارة" لم يكن المدرّس يضربها بالعصا مهما ضحكت، وإنما يقول لها: "لا تضحكي يا مختارة وانتبهي للدرس وإلا قلت لأبيك". وراءها كان يجلس تلميذ اسمه فتحي، يضربه المدرّس أكثر من أي تلميذ آخر، ويقول له دائماً: "يا حيوان يا ابن الحيوان". وإلى جوارها ناحية اليمين كانت تجلس تلميذة عرجاء اسمها فاطمة تضع تحت إبطها عكازاً حين تمشي، وحين تجلس تركن العكاز إلى الجدار المجاور لها، فلم تكن سعاد تقترب من هذا الجدار وتخاف من

مكتبة الفكر الجديد

منظر العكاز الغريب الذي يذكّرها بعكاز الشحاذ العجوز الذي كان يدبّ خلفها وهي تسير في الشارع وتتصور أنه سينقضّ عليها من الخلف.

إلى جوارها ناحية اليسار كان يجلس تلميذ اسمه ميشيل، ابتسم لها أول ما رآها وقال لها: ما اسمك؟ فقالت: سعاد! وفي الفسحة أعطاها ميشيل نصف الساندوتش الذي كان معه، ولعبا معاً في الفناء، وصعدا إلى الفصل معاً، وفرحت سعاد لأنها أصبح لها صديق آخر.

وفي اليوم التالي جاءتها تلميذة طويلة اسمها زينب، تجلس في الصف الأخير، وقالت لها: ما اسمك؟ قالت: سعاد. قالت لها: هل أنت مسلمة؟ قالت: نعم، فقالت: الحمد لله، كنت أظنك عضمة زرقاء. لم تفهم سعاد ما معنى كلمة "عضمة زرقاء" فقالت لها: "عضمة زرقاء يعني قبطي، والقبطي ليس مسلماً وإنما كافر، والكفرة كلهم سيدخلون النار لأنهم لا يؤمنون، وحياتهم كلها حرام في حرام، وفلوسهم حرام وأكلهم حرام، وميشيل قبطي وسوف يدخل النار معهم".

أحسّت سعاد برعدة خفيفة تسري في جسدها، وحينما التفت إليها ميشيل وابتسم لم تبتسم له، وحينما مدّ يده بنصف الساندوتش قالت له بصوتٍ مرتعش إنها ليست جائعة، وفي الفسحة حين قال لها "هيا نلعب في الفناء" ردّت بأنها لا تريد أن تلعب.

وحين عادت سعاد إلى بيتها ذلك اليوم سألت أباها: "هل

صحيح أن الأقباط كفرة وسيذهبون إلى النار"، فقال أبوها: "إن المسلمين وحدهم سيدخلون الجنة، لأنهم يؤمنون بالله وسيدنا محمد رسول الله، أما الأقباط فلا يؤمنون بسيدنا محمد، ويؤمنون بسيدنا عيسى ويسمونه المسيح، ويعتقدون أن المسيح ابن الله، وهذا كفر شديد عقابه نار جهنم، لأن الله واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له شريكاً أحد".

أصبحت سعاد كلما تتعرف إلى تلميذة جديدة أو تلميذ جديد تسأله: هل أنت مسلم أم قبطي؟ وحمدت الله لأن الفصل كله لم يكن فيه إلا مشيل، القبطي الوحيد. وكانت تراه جالساً في الفناء وحده يراقب التلاميذ وهم يلعبون، وأحياناً كانت الشمس تسقط على وجهه فيبدو وجهه محمرّاً، ويخيّل لسعاد أن الله سيجعل الشمس تتحول إلى نار لتحرق وجه ميشيل، وترتعد أحياناً من احمرار وجهه تحت الشمس وتظنّ أن الأشعة ستنقلب ناراً بين لحظة وأخرى، فكانت تبتعد عنه وتقف في الركن الآخر من الفناء، الذي لا يمكن أن تصل إليه النار أو أنها تستطيع أن تجري قبل أن تصلها.

وذات يوم جاء ميشيل وسأل سعاد قائلاً: "لماذا تخاصمينني يا سعاد؟"، فردّت عليه سعاد بأنه كافر وسيدخل النار، بينما هي مسلمة وستدخل الجنة، وأنها لا تريد أن تكلّمه لأن الله قد يُدخلها النار معه إذا صادقته. فقال لها ميشيل إنه ليس كافراً وإنه سيدخل الجنة مثلها لأنه يؤمن بالله وبالمسيح ابن الله. فقالت سعاد: "إن الله لم يلد المسيح ولم يلد أي أحد"، فردّ

مكتبة الفكر الجديد

ميشيل: "إن المسيح هو ابن الله، وإلاّ فمن أين جاء المسيح، وهل يمكن أن يولد أحد بدون أب؟". لم تعرف سعاد كيف تردّ على السؤال، وكانت تعرف من قبل أن الطفل لا يولد إلا إذا نام الأب والأم في سرير واحد، فانتظرت حتى عادت إلى البيت وسألت أباها عن ذلك، فقال لها أبوها إن سيدنا عيسى ولدته ستنا مريم العذراء بغير أب لأن الله نفخ من روحه فيها، وهذه هي إحدى معجزات الله، والله قادر على كل شيء وهو الذي خلق السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وكل شيء في الكون، خلقه كله في سبعة أيام، ويستطيع أن يهدّه كله في لحظة واحدة بأن يأمر السماء فتسقط فوق الأرض ويموت كل الناس. فتسأل سعاد بدهشة: "هل يمكن أن تقع السماء على الأرض يا أبي؟"، فيجيب أبوها: "طبعاً يا ابنتي، وسوف يحدث هذا في يوم القيامة حينما يأمر الله الشمس والقمر والسماء فتسقط كلها فوق الأرض ويموت كل الناس، ثم يصحون مرةً أخرى ليحاسبهم الله على أفعالهم في الدنيا، ويمشون على الصراط المستقيم، وهو حبل طويل رفيع كالشعرة مشدود فوق النار وفي نهايته الجنة". وتفتح سعاد فمها مشدوهةً وتقول: "وكيف يسير الناس على هذا الحبل الرفيع يا أبي، ألا يسقطون؟"، فيقول أبوها وهو يفرك يديه في حماس: "الذين يسقطون هم الكفرة والمشركون الذين لم يطيعوا الله، هؤلاء يترنّحون ويسقطون في النار. أما المسلمون الذين أطاعوا الله ورسوله فيمشون فوق الصراط المستقيم بسهولة وتصبح أجسامهم خفيفة ويعرفون

مكتبة الفكر الجديد

كيف يحفظون توازنهم فيجرون فوق الصراط إلى أن يصلوا إلى الجنة". وتظل سعاد فاتحةً فمها في دهشة، ويظل السؤال يتردّد في عقلها: كيف يمكن لإنسان أن يمشي بقدميه فوق شعرة رفيعة؟ ألا تنقطع الشعرة؟ ألا يسقط جسم الإنسان من فوقها، وكيف يمكن أن يحفظ الجسم توازنه؟

السؤال كان يخطر في عقلها حين تجتاز قناة الماء فوق تلك الماسورة الرفيعة، وهي أغلظ بكثير من الشعرة، ومع ذلك فإن جسدها يترنّح وتكاد تسقط في القناة لولا أن القناة ضيقة، وهي تقفز بسرعة إلى الناحية الأخرى قبل أن تسقط في الماء.

وفي يوم من الأيام ذهبت سعاد مع أبيها وأختها وأخيها إلى السيرك الذي نصب خيمةً كبيرة بجوار "الكوبري" من الناحية الأخرى من النيل، وجلست سعاد إلى جوار أبيها تتابع ألعاب الحيوانات في سعادة ولذة، إلى أن جاء دور الرجل الذي يسير على الحبل المشدود بين شجرتين عاليتين. تذكّرت سعاد على الفور الصراط المستقيم، وتعلّقت عيناها وأنفاسها بقدمي الرجل وهما تتأرجحان فوق الحبل، وكلّما همّ الرجل بالسقوط صرخت سعاد من الفزع، لكنّ أباها طمأنها وقال لها إنّ الرجل مدرّب على السير فوق الحبل ولن يقع. اطمأنت سعاد وسألت أباها فجأةً: "هل الصراط المستقيم مثل هذا الحبل يا أبي؟"، فقال أبوها إن الصراط المستقيم أرفع من الحبل لأنه شعرة. سكتت سعاد قليلاً، وأحست أن من الضروري أن تلتحق بالسيرك لتدرّب نفسها على السير فوق الحبال الرفيعة جداً

مكتبة الفكر الجديد

حتى لا تسقط من فوق الصراط المستقيم، لكنّ أباها أكد لها أن التدريب لن ينفع أحداً في يوم القيامة، ولكن الذي ينفع الإنسان في ذلك اليوم هو صلاته وزكاته وصيامه وطاعته لله ولأبيه وأمه.

كثيراً ما كانت سعاد تنسى الصراط المستقيم وتنسى الجنة والنار وتنطلق تجري في الحقل وتلعب. لذّتها وهي تحرّك ذراعيها وساقيها في الهواء تفوق أي لذة وتطغى في عقلها على كل شيء، وتنسيها كل شيء حتى الأكل فلا تشعر بالجوع، وحينما تنادي أمها عليها من النافذة لأن موعد الغداء قد حان تختفي وراء الشجرة وتظل تجري في الحقل وتحرك ذراعيها وساقيها في الهواء وتلعب.

وأشدّ ما كانت تكرهه أن ينادي عليها أبوها لتذاكر، إذ لا يمكنها أن تختفي وراء الشجرة أو أي شيء، فهي تخاف من أبيها أكثر من أمها، ويد أمها مهما ضربتها فهي لا تؤلمها، وعيناها حين تغضب منها لا تكسوهما تلك الحمرة المخيفة التي تجعل عيني أبيها ليسا عينَي أبيها وإنما عينا رجلٍ آخر لا تعرفه، وتتراجع إلى الوراء مبتعدةً عن أبيها محاولةً الالتصاق بأمها، فأمها هي أمها ومهما أخطأت ولم تسمع كلامها تظل أمها، وحين رسبت في امتحان نصف السنة وحبسها أبوها في حجرتها، ربتت عليها قبل أن تنام ولفّت ذارعها حولها وقالت لها: "أنا أحبك يا ماما"، فقالت لها: "وأنا أحبك يا سعاد"، فقالت سعاد: "ولكن أبي لا يحبني"، فقالت لها أمها: "أبوك يحبك يا سعاد ولكنك حين تلعبين ولا تذاكرين وترسبين في

الامتحان فإنه لا يحبك لأنه يريدك ناجحة"، فقالت سعاد: "ولكنك يا أمي تحبينني سواء رسبت أو نجحت"، فقبّلتها أمها وهي تقول: "أنا أحبك سواء رسبتِ أو نجحتِ، ولكني أحبك أكثر حين تنجحين"، فقالت سعاد: "ولكني لا أحب المذاكرة ولا أحب المدرسة"، فسألتها أمها: "ولماذا يا سعاد لا تحبين المدرسة ولا تحبين المذاكرة؟".

أطبقت سعاد شفتيها في صمت، فهي لا تعرف لماذا تكره المدرسة ولماذا تكره المذاكرة. كل ما تعرفه أنها تكره الجلوس كل تلك الساعات بلا حركة، وتكره تلك الكلمات التي تحفظها أمام المدرّس دون أن تفهم منها شيئاً، وإذا نسيت جملة أو أخطأت في كلمة لسعها المدرّس بالعصا على يدها ويقول لها "يا حمارة"، بينما زميلتها مختارة لا يضربها المدرّس ولا يقول لها "يا حمارة" مهما نسيت ومهما أخطأت، ولم تكن تعرف لماذا لا يضربها المدرّس كما يضرب كل التلاميذ، حتى قالت زميلتها فاطمة إن مختارة هي بنت المأمور وكل الناس في دسوق تخاف من المأمور وتعمل له ألف حساب.

سألت سعاد أمها عن المأمور وهل المأمور أحسن من أبيها، ولماذا يخاف الناس من المأمور ولا يخافون من أبيها؟ فقالت أمها إن الناس تخاف من المأمور لأنه يستطيع أن يدخلهم السجن وعنده عساكر، أما أبوها فليس عنده عساكر.

أغمضت سعاد عينيها لتنام ولتحلم أن أباها قد أصبح مأموراً وأصبح لديه عساكر كثيرون يحملون البنادق وكل الناس تخاف

مكتبة الفكر الجديد

من أبيها، وفي الفصل يبتسم لها المدرّس ويربت على ظهرها كما يفعل مع مختارة، ولا يضربها ولا يقول لها: يا حمارة.

وفي الصباح جاء أبوها إلى حجرتها وربت على ظهرها وقال لها إن أمامها فرصة جديدة للمذاكرة حتى لا ترسب آخر العام، وأنه سيشتري لها هدية جميلة إذا نجحت. لفّت سعاد ذراعها حول أبيها وقالت له: "أنا أحبك يا بابا"، فقال أبوها وهو يربت عليها: "وأنا أحبك يا سعاد، ولكني لن أحبك إذا رسبت مرة أخرى".

وتوضأ أبوها ليصلي، وكانت سعاد قد نسيت الصلاة فذكّرها أبوها بها وقال لها إن الله سوف يرضى عنها ويُنجّحها إذا صلّت وأطاعت الله، وطاعة الوالدين من طاعة الله.

وانتظمت سعاد في الصلاة مرةً أخرى، وبدأت تحبس نفسها في حجرتها وتجلس إلى مكتبها الصغير وتحفظ الدروس. لكنها ما إن تسمع صوت الأطفال تحت النافذة حتى تقفز وتجري لتلعب معهم في الحقل.

حركة جسمها وهي تجري تبعث فيها اللذة، وتشتد اللذة حين تمسك الفأس وترفعه عالياً في الهواء ثم تهوي به على الأرض في ضربات قوية. وتلك البذور الصغيرة التي تدفئها في التراب وترويها بالماء فإذا بها بعد بضعة أيام تبرز فوق الأرض خضراء ناعمة تلمسها بأطراف أصابعها، وفي كل يوم تراها تنمو وتكبر وأوراقها الخضراء تحت أشعة الشمس تلمع وتهتز كأنما ترقص. وتغوص بيديها في طين القناة لتصنع فتحةً تجري

بها المياه من القناة لتروي الزرع الأخضر. ويراها أبو صبري فيقول لها: "يا ست سعاد، ملابسك اتّسخت بالطين، وأبوك سيغضب منك ويضربك، اذهبي يا ابنتي وذاكري دروسك واتركي هذا العمل القذر لنا نحن الفلاحين"، فتقول سعاد إنها تحب هذا العمل أكثر من المذاكرة، فيقول لها صبري إنه يودّ ألاّ يشتغل في الحقل وأن يذهب إلى المدرسة ويقرأ ويكتب ويصبح موظفاً محترماً وليس فلاحاً فقيراً. فتقول له سعاد إنها تحسده لأنه لا يذهب إلى المدرسة ولا أحد يقول له يا حمار، ولا أحد يحبسه داخل الحجرة أو داخل الفصل، ولأنه يجري طوال النهار في الحقل الواسع مع الحمام والعصافير يحرك ذراعيه وساقيه تحت الشمس ويملأ صدره بالهواء المنعش. فيقول صبري إنه مستعد أن يبادلها حياته فيأخذ أباها الموظف ويعيش في البيت النظيف وينام في السرير تحت البطاطين ويأكل البيض والدجاج ويذهب إلى المدرسة ويرتدي الحذاء والبدلة، وتذهب سعاد لتعيش في كوخهم الطيني على حافة النيل، وتنام على الأرض، وتأكل "المش" الحرّاق، وتأخذ أباه الفلاح الذي يسير حافياً ويرتدي الجلباب الممزق والطاقية الجرباء.

لم تكن سعاد تتصور أن أباها يمكن أن يكون فلاحاً فقيراً، وكانت تتصوره مأموراً أو وزيراً أو حتى ملكاً، لكنها كانت تكره المدرسة وتكره أن يحبسها أبوها في حجرتها لتذاكر، وكانت تحب الحقل و"فَحْتِ" الأرض بالفأس وتحريك

مكتبة الفكر الجديد

ذراعيها وساقيها والجري فوق أرض واسعة.

وذات يوم ذهبت مع صبري إلى بيتهم الطيني على حافة النيل، ورأت أمه بجلبابها الطويل الأسود تعلوه بقع الطين، وأخوته الصغار أردافهم عارية ومغطاة بالطين وأنوفهم وعيونهم سائلة ومغطّاة بالذباب، والبيت ليس بيتاً فيه حجرات ولكنه حجرة واحدة سقفها من الطين والبوص وأرضها تراب... أشار صبري إلى ركن في الحجرة وقال لسعاد: "أنا أنام هنا وأتغطى بهذه الزكيبة في الشتاء". ولم تعرف سعاد ما هي الزكيبة لكنها رأت شوالاً فارغاً من الخيش، نفضه صبري من التراب وفرشه على الأرض قائلاً: "تفضلي اجلسي يا سعاد"، وقالت أمه وهي تجفف يديها السمراوين المشققتين بجلبابها وتمسح العرق عن وجهها الطويل النحيل: "يا مرحب يا ست سعاد".

قبل أن تنام سعاد تلك الليلة، وإلى جوارها أمها تربت عليها بيدها البيضاء السمينة، وجسمها الناعم الأبيض داخل قيمص نوم حريري، وسريرها دافئ وهي راقدة تحت البطانية الصوفية، حمدت الله بينها وبين نفسها لأن الله لم يجعلها مكان صبري، وكانت قد نسيت، وهي تتأرجح بين النوم واليقظة، المدرسة والمذاكرة والامتحان وكل شيء.

لكن ما أن تشرق الشمس، ويلمع الزرع الأخضر تحت الأشعة الذهبية كأنه يرقص، ويرفرف الحمام بأجنحته في الهواء، وتلمح صبري من النافذة مشمّراً عن جلبابه يضرب الأرض بالفأس أو يروي الزرع ويحرك يديه في ماء القناة أو

مكتبة الفكر الجديد

يجري وراء الحمام ويحرك ذراعيه وساقيه في الهواء، حتى تتململ سعاد وهي جالسة إلى مكتبها تذاكر، وتحس بجسدها محشوراً بين المقعد والمكتب، والخشب يضغط على بطنها من الأمام وظهرها من الخلف، وقدماها وساقاها لا تتحرك، ثابتة تحت المكتب كأنما مقيّدة بالحديد، ولا شيء فيها يتحرك، وعقلها أيضاً لا يتحرك، عيناها ثابتتان فوق الأرقام أو الكلمات، تحفظ شكلها وتصنع لها ذيولاً لتربطها بعضها ببعض فيسهل حفظها، فهي تبدو لها أرقاماً متفرقة، وتضاريس في الشرق والشمال والجنوب والغرب، وحوادث منذ قرون في بلاد لا تعرفها، وملوكاً وغزوات ومواقع لا أول لها ولا آخر، وقواعد النحو والإعراب والممنوعات من الصرف والمبني للمجهول ونون النسوة وجمع التكسير...

وكان أبوها قد أحضر لها مدرّساً خاصاً إلى البيت، يهزّ رأسه وهو يقرأ قواعد النحو كأنه يرتّل القرآن، ولسانه ثقيل، ويغمض عينيه ويفتحهما ثم يغمضهما ويفتحهما، ووهو يردد: أأأأأأأفهمت؟ فتقول سعاد: لا، فيرمش المدرّس بعينيه قائلاً: ليس من الضروري أن تفهمي، عليكِ بالحفظ!

وفي المدرسة كان المدرّس يقف بجوار السبورة وفي يده العصا الطويلة المدببة، أو يمرّ بين الصفوف يلسع التلميذات والتلاميذ على ظهورهم، وهو يقول: "انتبه يا ولد أنت وهو، انتبهي يا بنت أنت وهي". وتلتقط أذنا سعاد صوت المدرّس وهو يتكلّم عن بلد اسمه الصين، والصينيون بنوا حول الصين

مكتبة الفكر الجديد

سوراً كبيراً، وهم يربّون دود القزّ ليصنع لهم شرانق الحرير، وتتذكّر سعاد دود القزّ الذي تشتريه أحياناً وتضعه في صندوق من الكرتون، وتضع ورقات من شجرة التوت، وتثقب جدار الصندوق عدة ثقوب ليدخل الهواء ولا يموت الدود. وكان الدود يزحف داخل الصندوق ويصعد حتى الحافة محاولاً الخروج، لكن سعاد تهزّ الصندوق فيسقط الدود مرةً أخرى إلى القاع.

وفجأةً لسعها المدرّس على ظهرها وهو يسألها: "لماذا بنى الصينيون السور الكبير حول الصين؟"، فانتصبت سعاد واقفةً وهي تقول: "حتى لا يهرب دود القزّ إلى بلد آخر"، فلسعها المدرّس عدة لسعات أخرى.

وجاء امتحان آخر العام، ولم تنجح سعاد، فضربها أبوها وحبسها في حجرتها يومين بدون طعام. جلست إلى مكتبها وأمامها الكراريس والكتب، لكن عينيها كانتا تهربان بعيداً وتنفذان من خلال النافذة إلى الحقل. وعلى حافة القناة رأت صبري يروي الزرع مع أبيه ويضحكان، فحسدته لأن أباه يضحك معه ولا يضربه ولا يحبسه، ونسيت في تلك اللحظة بيت صبري الطيني وأمه وإخوته، وتمنّت لو أن صبري أعطاها أباه وأعطاها الفأس والحقل وأخذ منها الكراريس والكتب وأخذ أباها أيضاً.

وقبل أن تنام سعاد لم تأتِ أمها لتربت على ظهرها حتى تنام، ولم تُحضر إليها أي طعام، فنامت وهي جائعة، وحلمت

أن أباها مات، وأن أمها تبكي، وهي تحاول أن تبكي لكنها لا تستطيع، وتحاول أن تتحرك لكن قدميها ثابتتين في الأرض، وهي وحدها في شارع واسع مظلم، وتحاول أن تجري لكن ساقيها عاجزتين عن الحركة، وفجأةً ترى ذلك الشبح الطويل، عيناه حمراوان فيهما الشرر، وتصرخ لكن صوتها لا يخرج. وتفتح عينيها فجأةً فترى أمها إلى جوارها، فتسألها في فزع: "أين أبي؟"، فتقول لها: "إنه نائم في حجرته"، فتحمد الله بينها وبين نفسها أنه لم يمت، وأنها كانت تحلم، ثم تغمض عينيها وتنام من جديد.

وفي المدرسة وجدت سعاد نفسها في الفصل القديم، وفدت عليها التلميذات والتلاميذ الجدد الأصغر منها، وأحست فجأةً أنها كبيرة الجسم وطويلة، وأصبحت تحني قامتها قليلاً وهي تسير في الطابور حتى لا يلحظ أحد أنها أكبر تلاميذ فصلها. وفي الفصل أجلسها المدرّس في الخلف، مع التلاميذ والتلميذات الراسبين. وسمّي هذا الصف "صف الساقطين"، وبمجرد أن يخطئ الواحد منهم في جملة أو ينسى كلمة حتى تلسعه عصا المدرّس، وترنّ في أذنيها كلمة: يا ساقطة!

اشتدت كراهية سعاد للمدرسة والدروس والمذاكرة، وارتبطت في ذهنها بنوع من المهانة والخزي من طول قامتها، وكانت تنظر إلى نفسها في المرآة وتكره جسمها الكبير وتودّ لو كانت صغيرة الجسم مثل فاطمة التي رسبت معها ومع ذلك جسمها صغير ولا يمكن لأحد أن يفرّق بينها وبين التلميذات

مكتبة الفكر الجديد

الجديدات، فهي تلعب معهم في الفناء وكأنها واحدة منهم. لكن سعاد كانت تقف في الفناء وحدها، تخجل من اللعب مع تلاميذ وتلميذات فصلها الصغار، وقد تلعب أحياناً مع بعض زملائها القدامى، ومنهم مختارة بنت المأمور، التي لعبت معها الكرة بعض الأوقات.

وكانت تشعر بنوع من الزهوّ وهي تلعب الكرة مع مختارة، وأحياناً تجلس معها بعد انتهاء الحصص على الدكّة الخشبية في الفناء وتتحدثان، وقد تنضم إليهما سميرة صديقة مختارة. ويرنّ في الجو صوت بوق السيارة فتتركهما سميرة وتركب السيارة الحمراء إلى بيت أبيها دكتور الصحة. وما هي إلا لحظات حتى يقبل العسكري الذي يحمل حقيبة مختارة ويأخذها إلى البيت داخل العربة "البوكس". وتعود سعاد إلى بيتها سيراً على قدميها وحقيبتها تحملها في يدها، وتشعر بينها وبين نفسها أن أباها فقير ليس عنده عربة وليس عنده عساكر.

وتتساءل بينها وبين نفسها وهي سائرة: لماذا أعطى الله المأمور عربة وعساكر ولم يعطِ أباها؟ وهل الله يحب المأمور أكثر ممّا يحب أباها، مع أن أباها يطيع الله ويصلّي له كثيراً ويصوم، وهي أيضاً تصلّي وتصوم، وأمها تصلّي وتصوم كل شهر رمضان ما عدا تلك الأيام القليلة التي تمرض فيها؟ وينتابها إحساس غامض بالغضب من الله، وبأنّ لله لا يحب أباها حباً كافياً، أو أنه يفضّل المأمور عليه، ويفضّل عليه دكتور الصحة، وأن الله يحب مختارة أكثر منها لأنه جعلها ابنة المأمور، ويحب

سميرة أكثر منها لأنه جعلها ابنة دكتور الصحة.

تخبط سعاد الأرض بقدميها في غضب وهي تمشي على قدميها في الشمس المحرقة، وأصابع يدها متورمة من ثقل الكراريس والكتب داخل الحقيبة، وتتخيل مختارة وهي جالسة في العربة، والعسكري يحمل عنها حقيبتها.

إلا أن هذا الغضب سرعان ما يتلاشى حين تلمح زميلتها فاطمة وهي تتأرجح على عكازها الخشبي، تلهث وهي تعرج بخطوتها البطيئة الثقيلة، يتصبب من جبهتها العرق، فتحمد سعاد الله بينها وبين نفسها وهي تدبّ بقدميها القويتين على الأرض، وتجري إلى البيت وهي تحرك ذراعيها وساقيها.

وقد دعتها مختارة إلى بيتها في يوم عيد ميلادها، ولأول مرة تحضر حفلة عيد ميلاد. لم يكن أبوها ولا أمها يحتفلان بعيد ميلاد أحد، وكل ما تعرفه هو العيد الصغير بعد شهر رمضان حين تصنع أمها الكعك، والعيد الكبير حين يشتري أبوها الخروف ويأتي الجزّار ليذبحه عند الفجر.

دخلت سعاد بيت مختارة فوجدت أنه أحسن من بيتهم بكثير، وحوله حديقة كبيرة، وفيه كَراسٍ كبيرة مذهّبة تشبه الكراسي في بيت جدها، وساعة كبيرة معلّقة على الحائط، ومائدة كبيرة مضاءة بالشموع عليها أنواع من الحلوى والفطائر التي لم ترها ولم تتذوقها من قبل.

تأكدت سعاد في ذلك اليوم أن الله يحب مختارة أكثر ممّا يحبها، لأنه أعطاها كل هذه الأشياء، وتساءلت بينها وبين

مكتبة الفكر الجديد

نفسها: هل مختارة تصلّي أكثر منها؟ وبينما هي جالسة إلى المائدة، وإلى جوارها مختارة، سألتها فجأةً: "هل تصومين رمضان يا مختارة؟"، فقالت مختارة إنها لا تصوم لأنها ما زالت صغيرة. وسألتها سعاد مرةً أخرى: "وهل تصلين؟"، فقالت مختارة إنها لا تصلي، ولكنها حين تكبر ستتعلّم الصلاة وتصلّي. وهنا رفعت سعاد رأسها بنوعٍ من الزهو وقالت: "أبي علّمني الصلاة وأنا أصلّي كل يوم، وقد صمت رمضان العام الماضي والعام الذي قبله أيضاً".

أحسّت سعاد بنوعٍ من الرضا، فقد تميّزت على مختارة بشيء، وإذا كانت مختارة أغنى منها إلا أنها تعلمت الصلاة قبلها، وهي تصلي وتصوم ومختارة لا تصلي ولا تصوم. لكن هذا الإحساس سرعان ما تلاشى، وخطر لها سؤال حيّرها، وقالت لنفسها: إذا كانت هي تصلي وتصوم ومختارة لا تصلي ولا تصوم فلا بدّ أن الله يفضّلها على مختارة، وإذا كان الله يفضّلها على مختارة فلماذا أعطى مختارة أكثر ممّا أعطاها؟

ظلّ هذا السؤال يحيّرها حتى عادت إلى بيتها، وقالت لأمها إن الله ليس عادلاً لأنه أعطى مختارة أكثر ممّا أعطاها مع أنها تصلي وتصوم ومختارة لا تصلي ولا تصوم. فقالت أمها إنها يجب أن تستغفر الله وتردّد عبارة "أستغفر الله" ثلاث مرات، لأن الله عادل، والله يعطي من يشاء ولا يعطي من يشاء، وهو حر في عباده، وأن الله أعطاهم والحمد لله ما يكفيهم، وهم ليسوا طمّاعين ويجب عليها ألاّ تكون طماعة وتقنع بما أعطاها الله،

مكتبة الفكر الجديد

فالله يعطي كل إنسان حسب ما يستحقه.

لكن عقل سعاد كان حتى ذلك الوقت عاجزاً عن إدراك ما قالته أمها، ولا تتصور كيف يكون الله عادلاً حين يعطي التي تصلّي له أقل ممّن لا تصلي له. وإذا كان الله يعطي كل إنسان حسب ما يستحقّه، فلا بدّ أن الله رأى أن مختارة تستحق أشياء أكثر منها، وأن مختارة أحسن منها، وأنها أقل من مختارة.

وانتابها شعورٌ غامض بالمهانة والضآلة وعدم استحقاق شيء، وأنّ الله يعرفها على حقيقتها لأن الله يعرف كل شيء. واستقرّ هذا الشعور في نفسها واستراح له عقلها، لأنها لو شعرت أنها مثل مختارة وتستحق ما استحقته مختارة، فلا بدّ أن الله ليس عادلاً لأنه لم يعطها ما أعطى مختارة. وحيث أن الله لا يمكن ألاّ يكون عادلاً، فلا بدّ أنها أقل من مختارة ولم تستحق ما استحقّته مختارة.

وهدأ عقلها واستراح ضميرها وتخفّف من الشعور بالذنب، فلم تكن تحب أن تسيء من قريب أو بعيد لنزاهة الله، والأفضل أن تسيء لنفسها وتلصق بها صفة الضآلة على أن تتّهم الله بالظلم. ولم تكن الإساءة لنفسها تشعرها بالذنب أو الخوف، وإنما هو إحساس غامض بالمهانة تكبته في نفسها ولا تكاد تعيه إلا حينما تذهب إلى المدرسة وتقف في الطابور وتجد أنها أكبر تلميذة في فصلها، وأن رأسها تطلّ من فوق رؤوس التلاميذ الواقفين في الطابور، فتخفض رأسها وتحني ظهرها، وتظل خافضةً رأسها حانيةً ظهرها إلى أن تصل إلى مقعدها

مكتبة الفكر الجديد

في الصف الخلفي، حيث تنكمش وتكوّر ذراعيها وساقيها لتدخل بجسمها الكبير في المساحة الضيقة بين المسند الخلفي والدرج الأمامي.

وقد لاحظت أمها انحناءة ظهرها حين تمشي فأصبحت تنبّهها إلى أن ترفع ظهرها حتى لا تتعوّد على هذه المشية المنحنية وإلا أصبح لها سنام مثل سنام الجمل. وكانت قد رأت من قبل سنام الجمل، وأفزعها أن ينمو في ظهرها مثل هذا السنام، فأصبحت تشدّ عضلات ظهرها لترفعه كلّما تذكّرت كلمات أمها، لكنها ما أن تدخل المدرسة حتى تعود الانحناءة إلى ظهرها دون أن تعي. وحين تجلس إلى مكتبها تظل الانحناءة دون أن تعي. وحين تجلس إلى مكتبها تظل الانحناءة، وتزيد عليها انحناءة رأسها فوق الكراسة أو الكتاب، ويحتفظ جسدها بهذا الوضع طالما هي في الفصل، أو طالما هي جالسة إلى مكتبها في حجرتها تذاكر، أو يبدو لمن يراها أنها تذاكر، لأنها بينها وبين نفسها لم تكن تذاكر، عيناها فقط شاخصتان في الكتاب، لكن عقلها يفكر في الأشياء الأخرى التي تحبها. وهي تحب الجري واللعب في الحقل، لكنها لم تعد تنزل إلى الحقل، وأقسم أبوها أنها لن ترى الحقل ولن تلعب وتضيّع الوقت، فقد كبرت وأصبحت كالبغلة، ومن العار أن ترسب مرةً أخرى.

في القطار لم تعد سعاد تقفز من الفرح، ولم تعد تجري لتجلس بجوار النافذة، لكن قلبها كان لا يزال يدقّ وهي تحسّ

بحركة القطار السريعة، واللذة القديمة تسري في جسدها وهي تتابع بعينيها أعمدة السواري وهي تتراجع إلى الخلف بسرعة جنونية. وقد قالت أمها إنهم مسافرون إلى بيت جدتها في كفر الباجور، وأنها سوف ترى أيضاً جدها وخالها وخالتها في الدوار الكبير. ولم تكن سعاد تعرف ما هو الدوار الكبير، فقالت لها أمها إن أباها لديه بيت كبير في كفر الباجور يسمّونه الدوار، كان يعيش فيه جدها الكبير الشيخ الباجوري، وكان غنياً عنده أراضٍ كثيرة وعبيد سود، لكنه مات وترك أولاداً كثيرين من زوجاته الثلاث، وباع أبوها نصيبه من الأرض لأنه لم يكن يحب مشاكل الأرض والفلاحين، ولأنه كان ينفق أموالاً كثيرة على نفسه وعلى مزاجه، ويحب السهر وشرب الخمر، ولم ينزل إلى كفر الباجور منذ وفاة أبيه إلا مرة واحدة، وهذه هي المرة الثانية، وهي ليست زيارة لأقاربه الفلاحين ولكنها هجرة من القاهرة إلى القرية، لأن القاهرة فيها حرب والقنابل تسقط من السماء على البيوت فتهدّها وتحرقها.

أذناها تتابعان صوت أمها وتلتقطان لأول مرة كلمات جديدة لم تسمعها من قبل: الحرب، القنابل تسقط من السماء، وعيناها تتّسعان في دهشة وتنظران إلى السماء في وجل: كيف تسقط القنابل من السماء؟ ومن الذي يسقطها؟ هل هو الله، وهو الوحيد الذي يسكن السماء؟ ولماذا يهدّ الله البيوت ويحرقها؟ هل يعاقب الناس الذين لم يطيعوه ولم يصلّوا ولم يصوموا، أمثال مختارة، أم يعاقب جدها لأنه يحب السهر وشرب

مكتبة الفكر الجديد

الخمر، وشرب الخمر حرام كما سمعت من أبيها؟ أم أن الله يهدّ البيوت لأن يوم القيامة سيقوم، وكل الناس ستموت، وهي ستموت، وأبوها وأمها وأخوها وأختها، وكلهم سيموتون؟ واتّجهت عيناها إلى أمها فيهما نوعٌ من الفزع الغامض والحيرة والتساؤل: لماذا يعاقبهم الله كما يعاقب الآخرين الذين لا يصلّون ولا يصومون، مع أنها تصوم وتصلي، وأبوها يصوم ويصلي، وأمها تصوم... لكن أمها تقول لها أنْ ليس الله هو من يُسقط القنابل على البيوت والناس، وإنما تسقطها طائرات الأعداء. وترنّ كلمة "الأعداء" في أذنيها فتتذكّر على الفور كلمة "الإنكليز" فتقول: "الإنكليز هم أعداؤنا"، فيتدخل أبوها في الحديث ويقول لها: "الإنكليز هم أعداؤنا يا سعاد، لكننا نساعدهم الآن في حربهم ضد الألمان، وطائرات الألمان هي التي تُسقط القنابل في مصر".

لا تفهم سعاد شيئاً مما قاله أبوها، فكيف يكون الإنكليز أعداؤنا ثم نساعدهم؟ ولماذا يُسقط الألمان القنابل علينا، هل هم أعداؤنا أيضاً؟ ويقول أبوها إن الألمان والإنكليز أعداؤنا، لكننا نكره الألمان أكثر من الإنكليز، ونساعد الإنكليز ضد الألمان، وبعد أن نطرد الألمان سنطرد الإنكليز وتصبح بلدنا حرة وليس فيها أعداء.

أطبقت سعاد شفتيها في صمت محاولةً أن تبتلع شعور الخوف في أعماقها، والعالم من حولها يبدو رهيباً غامضاً مليئاً بالأعداء، إنكليز وألمان وعفاريت ولصوص وجنيات تخرج من

مكتبة الفكر الجديد

قلب البحر. والسماء أيضاً تبدو رهيبة غامضة، تعجز عيناها عن الوصول إلى قاعها، وعقلها عاجز عن تصور الله، وكيف يمكن أن يجلس وينام فيها ويظل معلّقاً هكذا في الفضاء ليل نهار، وماذا يحدث لو أن طائرة من طائرات الألمان اصطدمت بالله في السماء، أو أن قنبلة من القنابل انفجرت في الجو وأحرقت الله؟ هل يموت الله؟ وإذا مات الله فهل ستواظب على الصلاة وتذهب إلى المدرسة؟ أم أن القيامة تقوم والناس كلها تموت، بمن فيهم المدرسون والتلاميذ، ولا تصبح هناك لا مدرسة ولا دروس ولا امتحانات ولا رسوب ولا أي شيء؟

صدرها كان يعلو ويهبط كأنّما قلبها يدقّ دقات سريعة، مزيج من الخوف والفرح، لكن الفرح أكثر من الخوف، والخوف غامض غموض الموت، والموت بعيد أبعد من أن تتصوره أو تعقله، لكن المدرسة والدروس والامتحانات ماثلة في ذهنها كجزء منها، كأكبر جزء من عقلها، لا تفارقها في الليل أو في النهار، فهي في النهار تجلس وتذاكر دون أن تفهم، وهي في الليل تجلس في الامتحان دون أن تجيب. والموت في عقلها غامض وبعيد بل ومستحيل، لكن الامتحان قريب والمدرسة قريبة لا تبعد عن البيت إلا بضع خطوات، وقلبها يدق بالفرح متصورةً أن قنبلة سقطت من السماء فوق المدرس فهدمتها وأحرقتها وأحرقت الأدراج الخشبية والكتب والكراريس وأسئلة الامتحان.

قفزت من مقعدها وقد سمعت صوتاً يشبه صوت الانفجار،

مكتبة الفكر الجديد

لكنه لم يكن قنبلة وإنما دوّي بوق السيارة، وصراخ الأطفال وقد ركبوا في مؤخرة السيارة، وقد أحاطوا بها من كل جانب، وهم يهللون ويصرخون ويغنون: "حسن بيه يا حسن بيه، نوّرت الكفر يا حسن بيه". ولمحت من بين وجوههم المغطاة بالذباب وجه زكي ابن عمتها فابتسمت له، وجرى زكي بقدميه الحافيتين ومدّ يده خلال نافذة السيارة وأمسك يد أبيها وقبّلها وصوته يهتف بنشوة: "الدنيا نورت يا خالي البيه، الحمد لله على السلامة".

توقّفت السيارة أمام بيت جدتها الطيني، وخرج من البيوت الطينية المجاورة رجال بالجلاليب ونساء بالطرحات السود، ووقفوا يطلّون على السيارة بعيونهم المتّسعة وأفواههم المفتوحة، فهم لا يرون سيارة إلا مرة أو مرتين في العام، وذلك حين ينزل إلى كفر الباجور موظف كبير مثل حسن بيه أبو زيد.

يزدحم الزقاق الضيق بالرجال والنساء والعمّات والأعمام وأولاد العمّات وأولاد الأعمام، والكل يهتف: "ألف مرحب، يا ألف مرحب، الكفر نوّر، الدنيا نوّرت"، وأصوات الرجال تختلط بأصوات الأطفال، والتراب يتصاعد مع الأصوات في الجو.

وتكون الحاجة آمنة قد سمعت زمّور السيارة، والتقطت أذناها اسم ابنها حسن بيه، فخرجت إلى الشارع وسارت بين الجمع بقامتها الطويلة النحيلة، والأصوات من حولها تهتف لإفساح الطريق لأم البيه، وتشدّ عضلات ظهرها في كبرياء

مكتبة الفكر الجديد

لترفعه وترفع رأسها فوق الرؤوس وعيناها الضيقتان بغير رموش تتسعان وتبحثان عن ابنها، تلتقطانه من بين الوجوه، عيناها تسبقان قدميها، وذراعاها مفتوحتان قبل أن تصل إليه، وما أن يهبط من العربة حتى تتلقّفه بين ذارعيها، تقبّله وتلثمه، تلثم وجهه ورأسه وطربوشه وعنقه وتشمّ رائحته، رائحة ابنها الوحيد، وحيد على ست بنات، تركه أبوه صغيراً وهي التي علّمته، شقيت وتعبت وجاعت لتعلّمه، والحلم أصبح حقيقة، وهو الآن بلحمه ودمه، ببدلته وطربوشه، يأتي إلى الكفر في سيارة وليس على حمار، ومن حوله أولاده الثلاثة، صلاة النبي أحسن، وزوجته الست الهانم بنت البيه الكبير.

ويأتي الدور عليها بعد أبيها وأمها لتعانقها جدتها، تلفّ ذراعيها الطويلتين المعروقتين حول صدرها وتقبّلها عدة مرات وهي تضغط عليها وتخنقها بأنفاسها المختلطة برائحة التراب والعرق واللبن القشدة والفطير المشلتت. تحاول سعاد التملّص منها فتتسلّمها عمّاتها واحدة تلو الأخرى، يقبّلنها ويلثمنها وهنّ يردّدن: اللهمّ صلي على النبي، صلاة النبي أحسن، الدنيا نوّرت يا حسن بيه، الدنيا نوّرت يا ست سعاد.

تخنقها الأنفاس برائحة التراب والعرق والفطير، لكن فرح جدتها وعماتها يهزّ قلبها، وهي تقف بين أولاد عمّاتها الحفاة بحذائها الجلدي اللامع وفستانها الحريري، وتشعر أنها "الست سعاد"، وأبوها "بيه" حقيقة، وتمشي إلى جوار أبيها ممسكةً بيده وتحمد الله بينها وبين نفسها لأن الله جعلها ابنة

مكتبة الفكر الجديد

أبيها ولم يجعلها ابنة عبد الله الفلاح أبو زكي.

لكن هذا الزهوّ لم يدم طويلاً، فقد ذهبت سعاد مع أمها وأبيها إلى دّوار جدها، وهبط أبوها فجأةً من حسن بيه إلى حسن أفندي، وهبطت هي من ست سعاد إلى سعاد، أو البنت سعاد، وبيت جدها واسع فيه حجرات كثيرة، وأرضه ليست تراب فوقها حصيرة وإنما مفروشة بالسجاجيد، وحجرة النوم بها أسرّة ودواليب، ودورة المياة فيها صنبور وماء، وجدها جالس في الصالة الواسعة مرتدياً بيجامة حريرية، وجدتها جالسة صامتة لا تقبّلها ولا تكلّمها، وخالتها لم تعانقها ولم تقبّلها وعانقت أمها وقبّلتها، وخالها صافحها بيده البيضاء السمينة وقال لها: "أهلاً يا سعاد" ثم جلس يتحدث مع أبيها وجدها.

ظلّت سعاد جالسةً في ركن الصالة، عيناها تنتقلان من جدها إلى خالها إلى أبيها. وكان أبوها يرتدي الجلباب الأبيض الذي ينام فيه، وبدا بجلبابه إلى جوار جدها وخالها كفلاح فقير، ولا أحد هنا يفرح بقدومهم، ولا أحد يقول "الدنيا نوّرت".

سمعت جدها يتكلّم عن الحرب والقنابل، وخالها يقول إنه يكره الإنكليز ويحب الألمان، وأبوها يقول إنه يكره الإنكليز ويكره الألمان. قال خالها إن الألمان أفضل من الإنكليز وأنّ الملك مع الألمان ويريدهم أن ينتصروا في الحرب. وقال أبوها إن الملك لا يعمل من أجل البلد وأنّ النحّاس يعمل من أجل البلد. وجاءت خالتها وقالت إنها تحب الملك لأن شكله حلو،

ولا تحب النحّاس لأن شكل عينيه لا يعجبها، وإحدى عينيه لا تنظر إلى الأمام كالعين الأخرى، ويبدو لها في الصور كأنه ينظر بعين واحدة.

لم تكن سعاد تعرف بعد من هو "النحّاس"، لكنها كانت تريد أن تذهب إلى بيت جدتها حيث عماتها وأولاد عماتها. وقالت لها أمها أن تبقى في بيت جدها لتنام على سرير مريح نظيف، وأنها في بيت جدتها ستنام على الحصيرة وستلسعها البراغيث طوال الليل. لكن سعاد قالت لأمها إنها لا تريد أن تبقى في بيت جدها، وأنها تريد أن تذهب إلى بيت جدتها وتنام على الحصيرة وتذهب إلى الحقل مع زكي ابن عمتها وتأكل الفطير الساخن الذي تخبزه جدتها في الفرن. سمعتها خالتها فقالت لها "يا فلاحة"، فانتابها شعور قديم بالخزي، وأحسّت أن كلمة "فلاحة" هي نوع من الإهانة أو السباب.

تربّعت جدتها الحاجة آمنة على الأرض في فناء الدار، وأمامها حصيرة فُرش عليها القمح، تلمع حباته الصفراء تحت الشمس. تمدّ جدتها يدها وتملأ كفّها بالقمح ثم تقرّبها من عينيها لتلتقط حبات الحصى السوداء، تلتقط الحصوة بالسبابة والإبهام وتلقي بها بعيداً على الأرض، حصوة وراء حصوة. عيناها وهي جالسة إلى جوارها تتابعان حركة أصابعها، وهي كأصابع أبيها، طويلة وسمراء، لكن جلدها مجعّد وعروقها نافرة كالثعابين الرفيعة. جلبابها الأسود الواسع مغلق عند عنقها المعروقة بزرّ أحمر، ولا يظهر من تحت الجلباب، وهي

متربّعة، سوى قدميها الكبيرتين المشقّقتين، وإصبع قدمها الكبير يشبه إصبع قدم أبيها، غليظ وطويل، والأصابع الأخرى قصيرة ومقوّسة.

وكانت تفعل مثلها: تملأ كفّها بالقمح ثم تلتقط الحصوة السوداء وتلقي بها بعيداً، وتسابق جدتها، فهي ترى الحصوة أسرع مما تراها، وتلقي بأربع أو خمس حصوات في الوقت الذي تلقي هي فيه حصوة واحدة. لعبة لذيذة تستهويها، وحبّات القمح تتراقص ذهبيةً تحت الشمس، والعصافير تطير وتصوصئ، تتسابق لتلتقط بمناقيرها حبات القمح، وصوت جدتها الخافت يصل إلى أذنيها، تحكي وتحكي دون أن تتوقف:

"أبوكِ وهو صغير كان مثلك يحب أن يجلس معي ويساعدني وأنا أنقّي القمح. كنت أقول له قم يا ابني وذاكر دروسك لتنجح وتتفوق، فيقول لي إنه ناجح ومتفوق وإنه الثاني على فصله، فأقول له لماذا لم تكن الأول، وهل الأول أحسن منك، ألم تلده امرأة مثل أمك، وفي الكفر كله لا توجد امرأة مثل أمك، تشتغل في الحقل والدار وتساوي عشرة رجال. جدكِ مات وهو شاب صغير وترك لي ولد واحد على ست بنات، ولم يترك لنا إلا هذه الدار وثلاثة فدادين بور، وقال لي: يا آمنة خلي ابنك يطلع فلاح مثل أبيه، يمسك الفأس ويشيل عنك الشغل في الحقل، لكن أنا قلت: ابني لا يمكن يكون فلاح، كفاية أبوه مات ناقص عمر من وقفته طول النهار تحت الشمس. قلت لنفسي: يا آمنة طول ما أنتِ عايشة وفيكِ نفس لا يمكن

ابنك يمسك الفأس، أرسليه إلى مصر يتعلّم ويتوظّف ويبقى أفندي محترم مثل إبراهيم أفندي ابن جارتك حسنية. وهي حسنية أحسن منك يا آمنة! حسنية امرأة وحيدة مثلك، لا راجل ولا أرض ولا ضهر، وباعت كردانها وخلخالها وعلّمت ابنها في مصر، ولبس البدلة والطربوش، وينزل الكفر في سيارة لها زمّارة والكل يشاور عليه ويقول إبراهيم أفندي ابن حسنية".

عيناها لا تزالان تراقبان لمعان الحبوب الذهبية ورفرفة أجنحة العصافير تحت الشمس وحركة السبابة الطويلة المعروقة والإبهام الغليظ المجعد وهما يلتقطان الحصوة بعد الحصوة، وصوت جدتها الخافت مستمر متصل كأنفاسها وهي تنفخ القش من القمح الذي يملأ كفّها، شفتاها مليئتان بالكراميش والتجاعيد، وأنفها طويل مرتفع كأنف أبيها، وعيناها الضيقتان بغير رموش تتطلعان إليها، تملأ عينيها من وجهها الأبيض المستدير كوجه أمها، ومن عينيها الواسعتين السوداوين كعيني أبيها، ويدها الصغيرة تلعب بحبات القمح وتلقي بها إلى العصافير. وأذناها تسمعان صوت جدتها البطيء كأنفاسها، والكلمات أصبحت تعرفها وتحفظها عن ظهر قلب، فهي تكررها كل يوم بغير انقطاع، وبغير تعب أو ملل، وما أن تبلغ نهايتها حتى تبدأ من جديد، كبكرة من الخيط تدور وتدور، فلا البكرة تنتهي ولا الخيط ينقطع، وحبات الحصى فوق حصيرة القمح لا تنتهي، وأصابع جدتها لا تكفّ عن الحركة كشفتيها وهي تنفخ القش والكلمات معاً: "كان أبوكِ

هادئاً ومطيعاً، وكنت أقول له: ذاكر يا ابني لأجل ربنا ينجّحك ويتوب عليك من عيشة الفلاحين ويبقى لك "حسّ" في الدينا، وتفتح بيت وتتجوز واحدة من بنات البندر أبوها بيه، وأخواتك البنات يعيشوا على "حسك"، وإذا واحدة منهم غضبت من جوزها، أو جوزها طلّقها، تلاقي بيتك مفتوح".

لم تكن ترى جدتها إلا وهي جالسة في فناء الدار تنقّي القمح وتحكي الحكاية لها، أو لنفسها إذا لم تكن جالسة إلى جوارها. تسمعها تكلّم نفسها كما تكلّمها هي، وأحياناً تغنّي لنفسها بصوتٍ خافت وتهزّ رأسها وتقول: "عطشان يا صبايا دلّوني على السبيل"، أو تكوّر يدها وتلوح بقبضتها في الهواء وتغنّي: "يا عزيز يا عزيز، كبة تاخذ الإنكليز". تضحك سعاد وتسألها: "أرأيتِ الإنكليز يا ستّي الحاجة؟"، فتقول لها: "أنا لم أرهم يا ابنتي، لكن أبوكِ رآهم وضربهم في ثورة ١٩ بالحجارة والطوب، وضربوا عليه الرصاص، ضربة في قلوبهم، وهرب أبوكِ منهم – النبي حارسه – وجاء إلى الكفر على عربة "كارو"، ولم يذهب إلى مصر إلاّ بعد ما أفرجوا عن سعد زغلول. وندر أبوكِ لربنا أنّ أول ابن له يسمّيه سعد".

لكنّ جدتها كفّت عن الكلام والغناء بعد بضعة أيام وأصبحت تجلس صامتةً تنظر إلى السماء بعينين شاردتين وتمصمص شفتيها الجافتين، ثم لم تعد تخرج من حجرتها إلى الفناء، ولم تعد تنقّي القمح. كانت تلمحها من الباب راقدة فوق الحصيرة، عيناها مفتوحتان وفمها مفتوح وشفتاها تتحركان وكأنها تكلّم

مكتبة الفكر الجديد

أحداً. قال لها أبوها إن جدتها مريضة وتريد أن تراها، لكن قشعريرة غريبة سرت في جسدها وأصبحت تخاف الاقتراب من حجرتها، ويخيّل إليها أنها ليست نائمة وإنما ماتت وسوف يظهر عفريتها في الليل.

وكان الليل في كفر الباجور مظلماً مخيفاً، وليس في الدار "كلوب" نور كالذي في دوّار جدها، وإنما لمبة صغيرة لها لهب طويل يملأ الجدران السود بظلال الأشباح والعفاريت. وعلى الجدارن تزحف حشرات سود كالخنافس، والضفادع تنقنق، والناموس يزنّ، وطنين الصراير كالصافرات الحادة، والخفافيش تدخل من النوافذ وترتطم بالجدار، وتقول لها عمتها خديجة أن تخفي وجهها بيديها لأن الخفاش أعمى ويلتصق أحياناً بوجه الإنسان.

كانت تسمع أمها تصرخ إذا ما رأت صرصاراً يجري، فتضحك عمتها وتخفي فمها بطرحتها وهي تضحك دون صوت وتقول إن أولاد البندر يخافون من الصراصير، وأنّ الصراصير لا تعض ولا تلدغ مثل الثعابين. ولم تكن سعاد قد رأت ثعباناً، لكن زكي ابن عمتها خديجة قال لها إن الثعبان طويل وذيله رفيع كالكرباج، ويزحف على بطنه فاتحاً فمه، وأنفاسه لها صوت في الليل كالصفير الخافت.

تلك الليلة انتفضت سعاد من نومها فجأةً وقد سمعت الصفير الخافت، وحملقت في الظلام مذعورةً فرأت صرصاراً كبيراً يزحف إلى جوارها، وأصبحت تخاف من الصراصير وتصرخ

مكتبة الفكر الجديد

كما تصرخ أمها كلما رأت صرصاراً.

تضحك عمتها خديجة حين تسمعها تصرخ. تخفي فمها بطرف طرحتها، تضحك دون صوت حتى تدمع عيناها من شدة الضحك، ويخيّل إليها أنها تبكي. تمسح عمّتها عينيها بطرحتها وهي تقول: "اللهم اجعله خير يارب"، فتسألها ماذا تعني، فتقول لها إن الضحك يجلب الشر دائماً وهي تدعو الله أن يجعله خيراً.

أدركت سعاد بعد ذلك أن كل أقاربها الفلاحين لا يضحكون، وإذا ضحكوا فهم يضحكون بلا صوت ويتوجّسون شراً من الله بعد الضحك، وكأنما الضحك نوعٌ من الإثم يستحقون عليه العقاب تكفيراً للذنوب.

في القطار العائد إلى دسوق لم تكن سعاد مبتهجة كعادتها، فهي تحب كفر الباجور رغم العفاريت والبراغيث، وهي تحب أقارب أبيها الفلاحين رغم جلاليبهم المتّسخة بالطين وأيديهم السمراء المشقّقة، وهي تحب زكي ابن عمتها وتحب ركوب الحمار والذهاب إلى الحقل وأكل الذرة المشويّة على نار الحطب والفطير الساخن لحظة خروجه من الفرن. وهي تكره دسوق، لأن العودة إلى دسوق تعني العودة إلى المدرسة والمذاكرة والانغلاق داخل حجرتها أو داخل الدرج الخشبي، رأسها منكفئ فوق الكتاب وجسدها محنّط فوق المقعد، منضغط بين المسند عند ظهرها من الخلف والمكتب عند بطنها من الأمام.

مكتبة الفكر الجديد

تدخل أمها إليها بصينية الطعام وتقول لها: "ارفعي ظهرك وأنت جالسة وإلا طلع لك سنام"، فتتحسّس ظهرها بيدها متصورةً أنّ سناماً برز في ظهرها كسنام الجمل، وتقول لها إنها تريد أن تخرج وتلعب في الحقل مع صبري، فتسمح لها أمها بالخروج واللعب شرط أن تعود قبل أن يعود أبوها.

تقفز سعاد من فوق مكتبها وتنطلق إلى الحقل كالصاروخ، تجري وتلعب وتحرّك ذارعيها وساقيها في الهواء، تودّ لو تطير كما تطير العصافير وتهرب من بيتها وأبيها والمدرسة. لكن سرعان ما تلمح أباها قادماً من بعيد، تتعرّف عليه من بعيد بقامته الطويلة ومشيته البطيئة وحركة ذارعيه إلى الأمام وإلى الخلف لعلها "المنشة" تهتز في يده اليمنى ويده اليسرى ثابتة داخل جيبه.

في قفزة واحدة تصبح سعاد داخل البيت، وفي قفزة أخرى تصبح داخل حجرتها، جالسةً فوق المقعد إلى مكتبها ورأسها منكفئ فوق الكتاب دون حراك.

يبتسم أبوها حين يراها ويربّت على كتفها ويقول لها إن الله سينجحها لأنها تواظب على المذاكرة وتواظب على الصلاة، وتطيع أباها وأمها، ولا تضيّع وقتها في اللعب.

تذكّرت سعاد أنها انقطعت عن الصلاة فعادت إليها وأصبحت تصلّي كل يوم، الوقت بوقته، وقد خيّل إليها أن الله هو الذي جعلها ترسب العام الماضي لأنها لم تكن تصلّي بانتظام. وفي الركعة الأخيرة تظلّ ساجدةً بضع دقائق، كما يفعل أبوها، وتردّد بصوتٍ خفيض مثل صوت أبيها: "يارب

خذ بيد سعاد ونجّحها هذا العام". وحين تنطق اسم "سعاد" يبدو لها أن هذه البنت ليست هي، ثم لا تلبث أن تدرك أنها هي لكنها تردّد "يارب خذ بيد سعاد" وكأنها ليست هي.

وذات مرة، وهي تدعو الله وتقول "يارب خذ بيد سعاد ونجّحها هذا العام"، تذكّرت فجأةً أنّ في فصلها ثلاث تلميذات غيرها أسماؤهنّ سعاد، فأردفت على الفور: "يارب خذ بيد سعاد حسن أبو زيد"، وقد خشيت أن يخطئ الله ويُنجح سعاد أخرى غيرها.

وفي مرةٍ أخرى اشتدّ خوفها من الرسوب في الامتحان فأخذت تكلّم الله وهي راكعة وتقول له: "والنبي يارب لا تجعل سعاد تسقط هذا العام أيضاً، والأفضل أن تجعلها تموت لأن الموت عندها أهون من السقوط"، وأحسّت بدموعها الساخنة تنهمر على وجهها، وأدركت أنّ الله لا بدّ يراها ويرى دموعها، لكنها كانت لا تزال تشكّك في أنّ الله وهو في السماء يمكن أن يراها وهي داخل حجرتها، وخيّل إليها أن الله قد يسمعها، لأن الصوت يمكن أن يخرج من النافذة المفتوحة، فأخذت تنشج بصوتٍ عالٍ، مقرّبةً رأسها من النافذة ورافعةً يديها، وتقول: "يارب خذ بيدي ونجّحني"، وأحسّت أنها تخدع الله بدموعها، مع أن رغبتها في البكاء حقيقية، وهي تكبتها منذ زمنٍ بعيد، وتريد أن تبكي وتبكي، لكن عقلها أدرك بطريقة خفية ماكرة أنها تبكي لستدرّ عطف الله عليها لينجحها، لكن أحداً لا يستطيع أن يخدع الله، فالله يكشف ما في الصدور.

وسرت في جسدها رجفة، وخيّل إليها أنّ الله سيغضب عليها ويسقّطها في الامتحان عقاباً لها على خداعه، فاستغفرت الله ثلاثاً واستعاذت به من الشيطان الرجيم ثلاثاً، وقطعت الصلاة وجفّفت دموعها ثم بدأت من جديد من دون بكاء، وفي الركعة الأخيرة رفعت يديها عالياً وقالت: "يارب خذ بيدي ونجّحني، ولو نجّحتني هذا العام فسوف أصلّي بانتظام ولا أخلف يوماً واحداً وأطيع أبي وأمي طاعة عمياء".

إلا أنها ما أن نطقت بهذه الكلمات حتى أصابتها رجفة، فقد رنّت الكلمات في عقلها كأنّما الصلاة والطاعة رشوة تقدّمها لله ثمن نجاحها، مع أن الصلاة واجب والطاعة واجبة كما قال أبوها، سواء سقطت أم نجحت، ومهما حدث للإنسان من مصائب وكوارث وسقوط عليه ألاّ يفقد ثقته في الله ويظل يعبده ويصلّي له حتى آخر العمر.

وخيّل إليها أن صلاتها أصبحت باطلة، فكيف تفكّر في رشوة الله؟! بل كيف تتصوّر أن الله يقبل الرشوة مثله مثل أي شخص بلا ضمير؟! فاستغفرت الله ثلاث مرات، واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم ثلاث مرات، ثم قطعت الصلاة وبدأتها من جديد، واختتمتها بدعاء قالت فيه: "أشكرك يارب وأحمدك سواء نجحتني أم سقّطتني".

ظلّت الكلمات الأخيرة تتحرك في عقلها، تقول لنفسها إن الله هو الذي ينجحها وهو الذي يسقطها، والنجاح أو السقوط مكتوب عليها بإرادة الله قبل أن تولد، وكل شيء في حياتها كتبه

مكتبة الفكر الجديد

الله قبل أن تأتي إلى الحياة كما قال لها مدرّس الدين. وشعرت بنوعٍ من اليأس وهي تردّد هذه الكلمات بينها وبين نفسها، وأدركت أنها مهما ذاكرت ومهما بذلت من جهد فلن تنجح إذا كان الله قد كتب لها السقوط. وانتابها إحساس بالراحة والاستسلام للمصير المحتوم وأنها مغلوبة على أمرها وليس لها يد ولا إرادة لو أنها سقطت هذا العام. لكن شعور الراحة سرعان ما أعقبه شعور بالخوف من عقاب أبيها، وأعقب الخوف نوعٌ من التمرّد: فلماذا يعاقبها أبوها إذا كان الله هو الذي أراد لها السقوط؟ وهل كان يمكن لها أن تنجح ضد إرادة الله مهما ذاكرت ومهما صلّت وصامت ورفعت يديها بالدعوات؟

قبل أن تنام تلك الليلة همس لها عقلها بأن تكفّ عن الصلاة والدعاء والمذاكرة وكل شيء: فما فائدة أي شيء، بل ما فائدة السقوط أو النجاح وما فائدة الحياة كلها إذا كانت نهايتها الموت؟ وهي ستموت في النهاية سواء نجحت أم سقطت، فأغمضت عينيها ونامت بعمق وهي سعيدة.

في الصباح تبخّرت فكرة الموت من عقلها وتلاشت مثلما تلاشى الظلام تحت أشعة الشمس، ورأت مكتبها ومن فوقه الكتب والكراريس وسمعت صوت أبيها في الصالة يناديها لتصحو من النوم وتبدأ المذاكرة قبل أن تشتد حرارة الشمس.

وما أن يخرج أبوها من البيت حتى تقفز من فوق مكتبها وتجري إلى أمها لتأذن لها بالخروج. لكنها لم تعد تأذن لها باللعب، وتهددها بأنها ستبلغ أباها إذا خرجت، فتبقى سعاد

داخل البيت تتجوّل في الحجرات أو تطلّ من النافذة أو تساعد أمها في المطبخ أو تمسك الشاكوش والكمّاشة وتدق أحد الكراسي المكسورة. تمسك الشاكوش كأنه فأس وترفعه إلى أعلى ثم تهبط به بكل قوتها فوق رأس المسمار. تكرّر الضربات وتحرّك عضلات ذراعها وكتفها وعنقها وظهرها، تحرّكها بكل قوتها حتى يتساقط العرق من جبهتها. إنها تستشعر في الحركة لذةً عجيبة ونوعاً من الراحة، كأنما في جسدها ألمٌ دفين لا يزول إلا بالحركة، أو طاقة ضخمة مخزونة كالبخار المضغوط، تضغط على صدرها وعقلها وذراعيها وساقيها. تودّ لو حرّكت ساقيها بكل قوتها وضربت الأرض والجدار، أو حرّكت ذراعيها بالشاكوش وضربت مكتبها الخشبي بكل قوتها. وأحياناً كانت تضرب المكتب بقبضة يدها متصورةً أنها قادرة على تحطيمه، لكن المكتب يظل كما هو ويدها هي التي تحمرّ وتلتهب. داخل جسدها طاقة مكبوتة تسعى نحو الحركة، وداخل عقلها حركة لا تعرف كيف تخرج. وكلما جاء إلى البيت نجّار أو سبّاك وقفت إلى جواره، عيناها تتابعان يديه وهو يشتغل، تراقب النجّار كيف يدقّ المسامير وكيف ينشر الخشب بالمنشار، وأحياناً تأخذ منه المنشار لتحرك يديها مثله وتدق معه المسامير، وتتعلم من السبّاك كيف يفكّ صنبور الماء وكيف يركّب داخله قطعة الجلد، وتلفّ في حجرات البيت تبحث عن شيء تدقّه أو تفكّه أو تصلحه.

وأكثر ما كانت تحبّه هو أن تراقب الكهربائي حين يأتي

مكتبة الفكر الجديد

لإصلاح الراديو. وتعلمت منه كيف يشتغل الراديو، وكيف يكتشف اللمبة التي احترقت، وكيف يوصل الأسلاك التي قُطعت.

وفي صباح أحد الأيام أدارت أمها مسمار الراديو فلم ينطق، وكانت تحب سماع الراديو، تسهر إلى جواره لتسمع حفلات أم كلثوم أو الريحاني، فأرسلت أمها الخادمة لتستدعي الكهربائي، لكن الخادمة عادت بدون الكهربائي وقالت إنه سيحضر بعد الظهر.

سيطر على سعاد إحساس بأنها تستطيع أن تصلح الراديو، فما أن دخلت أمها المطبخ حتى حملت الراديو إلى حجرتها وفتحته من الخلف، كما يفعل الكهربائي، وبدأت تبحث بين الأسلاك واللمبات. أصابعها تنتقل بين الأسلاك الرفيعة بحذر ودقة، وحركة عقلها وهو يبحث عن سرّ العطل تبعث في جسدها لذة غريبة، والعرق يتصبّب من جبهتها، والساعة تمر وراء الساعة وهي مستغرقة بين الأسلاك الكثيرة الملتوية المعقّدة، تمسك كل سلك على حدة وتتبعه من بدايته إلى نهايته، واللمبات تجرّبها وتختبرها واحدة تلو الأخرى، إلى أن اكتشفت أنّ لمبة الصوت محترقة، فأسرعت إلى أمها متهللة الوجه وقالت لها إن الراديو يمكن أن يتكلّم لو أنها اشترت لمبة صوت جديدة وركّبتها.

صرخت أمها حين رأت الراديو في حجرتها وقد خرجت أسلاكه وأحشاؤه: "ما هذا الذي فعلتيه! تركتِ المذاكرة

وأخذت تلعبين بالرايو حتى أفسدتيه!". لكن الراديو لم يفسد ذلك اليوم، وجاء الكهربائي وركّب لمبة صوت جديدة واشتغل كما كان. لكن أحداً بالبيت لم يعرف هذه الحقيقة، حتى سعاد نفسها لم تعرفها، فهي لم تقف إلى جوار الكهربائي وهو يعمل بل كانت واقفة أمام أبيها في حجرتها، خافضةً رأسها كالمذنبة وعينا أبيها حمراوان بالغضب، يؤنّبها لأنها تركت المذاكرة ولعبت بالراديو.

في ذلك اليوم لقّنها أبوها درساً قاسياً... قال لها إنها لم تعد صغيرة لتلعب، وأنها لا بدّ أن تنجح وتحصل على الابتدائية لتدخل المدرسة الثانوية وتحصل على شهادة عالية، وقال لها إنها لو رسبت هذا العام فسوف يحرمها من التعليم لتبقى في البيت تمسح البلاط، فهو لا يملك أرضاً ولا مالاً ولا بيوتاً ولا أي شيء سوى مرتّبه، وأنه لن يعيش إلى الأبد لينفق عليها، وسيأتي يوم ويموت ولا تجد أحداً ينفعها. وثبّت عينيه وهو ينظر إليها ويقول: "ألا ترين أنك كبرتِ وأصبحتِ كالبغلة، فأنت لست شاطرة إلا في الأكل، ولكنني لست على استعداد لأن أطعم البغال، وما زال أمامي أختك وأخوكِ الصغير لأنفق عليهما".

لا بدّ أن شيئاً ما تغيّر في سعاد بعد هذا الدرس. لم يضربها أبوها هذه المرة كما كان يضربها، لكنه كان جالساً هادئاً ينظر إليها بعينين ثابتتين. وبدا لها وهو ينظر في عينيها كأنه ليس أباها، وسرت في جسدها قشعريرة، فقد خيّل إليها أنها

مكتبة الفكر الجديد

عاشت كل تلك السنوات مع أب هو ليس أباها، وأنه لا يريد أن يطعمها، ويمكن أن تبقى في البيت لتمسح البلاط، أو يطردها وتبيت على الرصيف في الظلام، وينقضّ عليها اللصوص أو العفاريت. إلاّ أنها لم تكن إلاّ لحظة خاطفة، فقد عادت إلى عينَي أبيها نظرته المعتادة، وتلك السحابة المخيفة من الحزن الدفين تشبه العاطفة الغامضة وكأنه حنان مكبوت، وحين قال إنه سيأتي يوم ويموت، لم تستطع سعاد أن تنظر في عينَي أبيها، ودقّ قلبها بحبٍّ مكتوم كالبخار المضغوط وبنوعٍ من الخوف على أبيها أن يموت، وقد أوحت لها كلماته الهادئة الباردة أنه سيموت فعلاً، وأن موته أصبح حقيقة واقعة، أو ستقع عمّا قريب. ولم تكن سعاد حتى ذلك الوقت تدرك معنى "الموت" بعقلها، لكن جسدها أدرك معناه، وسرت فيها قشعريرة نفذت إلى أحشائها، وشعرت برغبة في القيء أو البكاء. ولم تكن تستطيع أن تفصل بين رغبة القيء ورغبة البكاء، وكانت إذا رغبت في البكاء تقيّأت، ولم تكن تحب أن يرى أحد دموعها، على الأخص أختها الصغرى، فالدموع تجعلها تهبط إلى مستوى أختها الصغرى، وقد تعودت أن تكبت البكاء وتبتلع دموعها، فتتكوّن الدموع في بطنها وتضغط عليها، فإذا بها تتقيّأ.

تصوّرت أمها أن كثرة القيء سببه مرض في معدتها، لأنها تأكل الزرع بطينه من الحقل وتأكل اللب بقشره الذي يقف عليه الذباب. أخذها أبوها إلى طبيب فقال الطبيب ما قالته

مكتبة الفكر الجديد

أمها وأعطاها دواءً مرّاً، لكنها لم تكن تشربه وإنما كانت تُفرغ معلقة الدواء في الحوض بدلاً من أن تُفرغه في فمها. وقد ضبطتها أمها مرةً وهي تفعل ذلك فأمسكتها، هي وأبوها، ليُشرِباها الدواء بالقوة، فأغلقت فمها بكل قوتها، لكن أباها سدّ أنفها بيده فأحسّت أنها ستختنق وتموت ففتحت فمها عن آخره لتتنفس فسكب أبوها معلقة الدواء داخل حلقها.

نجحت سعاد في الامتحان ذلك العام، وحصلت على الشهادة الابتدائية، وفرحت أمها وفرح أبوها واشترى لها هدية النجاح ساعة يد، ووفد على البيت أصدقاء أبيها يهنّئون، وسمعت أبوها يقول عنها إنها أصبحت ابنة مطيعة، وأصدقاء أبيها يقولون إنّ الله لن يتخلى عنها وسوف ينجحها دائماً.

ولم تنقطع سعاد عن الصلاة بعد النجاح، حتى لا يظن الله أنها كانت تصلّي من أجل الامتحان فقط، وواظبت على الدعاء أيضاً، فكانت ترفع يديها عالياً وتقول: "أشكرك يا رب لأنك نجحتني". ويناديها أبوها لتسلّم على الضيوف، وتتلقّى سعاد التهاني، لكن قلبها ثقيل، وإحساس غامض يساورها بأن الذي نجح في الامتحان ليس هي وإنما الله، أو مندوب من عند الله على شكل ملاك هبط من السماء وأجاب عن الأسئلة أو لقّنها الأجوبة. وحينما يهنّئها أصدقاء أبيها بالنجاح يخيّل إليها أنها لا تستحق التهنئة ولا تستحق الهدية ولا تستحق أي شيء، وينتابها إحساس بالمهانة والضآلة، فتزحف دمعة كبيرة عند زاوية عينها، تبتلعها بسرعة قبل أن يراها أحد ثم تبتسم لأصدقاء

أبيها متظاهرةً بالسعادة مخافة أن يكتشف أحدٌ منهم ما يدور في عقلها.

وكانت تدور في عقلها أسئلة كثيرة لا تجد الإجابة عليها، وكان السؤال الذي شغل بالها ذلك الوقت هو: إذا كان الله هو الذي قرّر نجاحها أو سقوطها، فهل تستحق العقاب إذا سقطت، وهل تستحق الهدية إذا نجحت؟

قال لها أبوها إن الله يقرر السقوط والنجاح ويقرر الخير والشر، ولكنه أعطى الإنسان عقلاً يميّز به بين الشر والخير. وتساءلت سعاد: "ما فائدة أن يفكّر الإنسان ويختار الخير، مثلاً، إذا كان الله قد قرّر له الشر؟ وهل يمكن أن يفعل الإنسان الخير ضد إرادة الله؟"، فقال أبوها: "إن الله لا يقرر الشر إلا للأشرار، أما الأخيار فالله يقرر لهم الخير"، فقالت سعاد: "إن الله هو الذي يخلق الأشرار ويخلق الأخيار، فهل يمكن للأشرار أن يصبحوا أخياراً ضد إرادة الله؟"، فقال أبوها أنْ لا شيء في الكون يمكن أن يحدث بغير إرادة الله. وتساءلت سعاد: "لماذا يعاقب الله الأشرار إذا كان هو الذي خلقهم أشراراً وهو الذي قرّر لهم الشر؟"، فارتفع صوت أبيها في شيء من الغضب وقال: "هذه هي حكمة الله في خلقه، وهو حرّ في عباده، يعطي الرزق لمن يشاء ولا يعطي من يشاء، ويعطي الهداية لمن يشاء ويعطي الضلال لمن يشاء، كل شيء بمشيئته وهو العليم الحكيم".

ورغم ارتفاع صوت أبيها وغضبه إلا أن سعاد ظلت عاجزة عن الفهم، وظل عقلها غير قادر على الاقتناع بأن الأشرار

يستحقّون دخول النار وهم لا يد لهم في أي شيء، والأخيار أيضاً لا يستحقون دخول الجنة بالمثل، لأن الله هو الذي جعلهم أخياراً وليس هم الذين جعلوا أنفسهم أخياراً.

وازداد ارتفاع صوت أبيها وبدأت حمرة الغضب تشوب بياض عينيه وهو يقول لها إنها لا بدّ أن تطرد الشيطان من عقلها وروحها، ولا بدّ أن تؤمن بحكمة الله كما هي وألا تحاول أن تشكّك في حكمة الله. فالله هو الذي خلق الإنسان، والخالق أعظم من المخلوق، ولا يمكن للمخلوق أن يسأل الخالق عن سرّ حكمته، والله وحده هو العليم بالأسرار، وعليها أن تؤمن بالله وحكمته إيماناً لا يزعزعه أي شك، والإيمان القوي بالقلب وليس بالعقل، لأن عقل الإنسان عاجز عن إدراك قدرة الله سبحانه وتعالى.

تركت سعاد السؤال عالقاً في عقلها من دون جواب، وسرعان ما نسيته ولم تعد تفكّر فيه. وكلّما وقفت بين يدي الله لتصلّي سرت في جسدها قشعريرة الخوف أو الرهبة، ولا تعرف هل قرر الله لها دخول الجنة أم دخول النار؟ وهل سيجعلها من الأخيار أم من الأشرار؟ وفي بعض الأحيان كانت ترفع يديها إلى أعلى وتسأل عمّا قرّر لها في حياتها، ويخيّل إليها أنها تسمع صوتاً يهمس لها، لكنها لا تعرف أهو صوت الله أم صوت الشيطان، ولشدة خوفها لا تسمع ماذا يقول لها الصوت، فتنهي الصلاة بسرعة للتخلص من الخوف.

وفي صباح أحد الأيام رأت أمها تبكي بصوتٍ مكتوم، وقد

مكتبة الفكر الجديد

ارتدت ثوباً أسود، وعرفت أن جدها مات، وخيّل إليها أنه مات لأنه كان يشرب الخمر كثيراً، وأنه سيدخل النار. لكن أمها قالت لها إنه شرب الخمر في شبابه ثم تاب إلى الله وكان يصلّي في أواخر أيامه وسوف يدخل الجنة. حمدت سعاد الله بينها وبين نفسها لأن جدها لن يدخل النار، فهي لم تكن تحب أن يحترق أي أحد من أقاربها في النار.

ظلت أمها مرتديةً الثوب الأسود أربعين يوماً، والراديو أيضاً أغلقته، ولم تعد تسمعها تضحك بذلك الصوت العالي الذي كان يصل إلى أذنيها حتى وهي في الحقل. إلا أن كل شيء عاد إلى ما كان عليه بعد أربعين يوماً، فقد خلعت أمها الثوب الأسود وعادت ضحكتها ترنّ في البيت.

أمها كانت لها ضحكة عالية مميّزة، تسمعها وهي في الشارع فيبتهج قلبها وتشعر بالاطمئنان: ما دامت أمها تضحك فلا بدّ أنها لا تزال على قيد الحياة. وأبوها أيضاً ما زال على قيد الحياة، وعاد كل شيء في بيتهم كما كان.

إحساس عميق دفين كان يلازمها منذ الطفولة: أنها في لحظة ما مفاجئة لن تجد أمها، أو أن أباها سيموت أو يختفي فجأةً، وتصبح بلا مأوى ولا عائل يطعمها أو يدفع لها المصاريف. وبقدر ما كانت تخاف على أبيها أن يموت، بقدر ما كانت تتصور أن الموت وحده هو الذي يمكن أن يحرّرها من أبيها، ويحرّرها من المذاكرة والمدرسة.

لم تكن هنا مدرسة ثانوية للبنات في دسوق، ففرحت

سعاد وتصورت أنها لن تذهب إلى المدرسة، لكنها اقترحت أن تلتحق بمدرسة العباسية الثانوية للبنات وتعيش في بيت المرحوم جدها.

بيت جدها ما زال مغلقاً. في ذاكرتها سحابة قاتمة من الكراهية، وهي لا تحب جدها، وجدها لم يعد موجوداً في البيت لأنه مات، لكنها لا تحب خالتها أيضاً. جدتها لا تكرهها ولا تحبها، وخالها مثل جدتها وإن كانت تحبه أكثر.

وأهم من هذا كله هو أنها ستعيش في العباسية، بعيداً من دسوق، وبعيداً عن أبيها. إحساس حاد بالفرح يهزّ قلبها في الخفاء لمجرد أنها ستعيش في بيت ليس فيه أبوها.

الليلة الأخيرة، قبل أن تغادر دسوق، جاءت أمها ورقدت إلى جوارها في سريرها، يدها البيضاء البضّة تربت على ظهرها كما كانت تفعل وهي طفلة، وصوتها الناعس يهمس في أذنها: "ستكونين مسؤولة عن نفسك يا سعاد في بيت جدك، وستذاكرين دروسك دون أن يطلب منك أحد ذلك، وقد كبرتِ ولم تعودي في حاجة أن يقول لك أحد ما هي مصلحتك. ومصلحتكِ يا ابنتي هي في المدرسة والتعليم، فالتعليم يرفع الإنسان إلى أعلى مرتبة، وكنت أحب التعليم وأنا مثلك، وكنت أتمنى أن أتعلم كل شيء، إنكليزي وفرنساوي وأضرب بيانو وأركب خيل، لكن المرحوم جدك كان رجلاً صعباً، يعلّم البنت حتى تبلغ خمسة عشر عاماً فيخرجها من المدرسة ويبقيها في البيت حتى يأتيها العريس. وبكيت حين أخرجني من المدرسة،

مكتبة الفكر الجديد

وكنت أكره البيت ولا أطيق الحياة فيه، وبالذات حين يكون أبي بالبيت، فهو لا يكفّ عن الشجار مع أمي، وإذا خرج أفرح، وحين يعود أدخل حجرتي ولا أظهر، وأقول لنفسي: يارب أتزوح أي واحد وأخرج من هذا البيت. وكنت في السادسة عشرة حين جاء أبوك ليخطبني، وأختي دولت كانت تغيظني وتقول لي إن العريس فلاح وأهله فلاحون، فقلت لها: فلاح فلاح، أنا راضية بأي واحد لأترك بيتكم ومن فيه. يوم الخطوبة، نظرت من وراء الشيش لأرى شكل الرجل الذي سأتزوجه، ولم أرَ إلا ظهره لأنه كان جالساً وظهره ناحية الشيش ووجهه الناحية الأخرى، ولم يكن مهمّاً أن أراه. وعملوا الخطوبة، وبعدها كتبوا الكتاب، ودخلت. وأول سكن لنا كان في كوبري القبة، الشقة التي ولدتكِ فيها. وأول ما دخلت حملت بكِ، وجدّتك الحاجة أم أبيك رأتني وأنا حامل فقالت لي: أنتِ في بطنك ولد يا ناهد. قلت لها: كيف عرفتِ يا حماتي؟ قالت: أنا أعرف أم الولد من نضارة عينيها، وأم البنت من لون وجهها الأصفر. وكنت أضحك وأقول لها: حرام عليك يا حاجة، البنت مثل الولد، فتغضب مني جدتك الحاجة وتقول إن الولد يساوي عشر بنات، فأقول: بالعكس، البنت أحسن من الولد، وأدعو الله أن يرزقني ببنت".

تغمض سعاد عينيها وتنام وهي تحمد الله لأنه سمع دعاء أمها وجعلها بنتاً وليس ولداً، وتصوّرت أنها كانت من الممكن أن تكون ولداً لولا دعاء أمها. وحمدت الله مرة أخرى الذي جعل

أمها تتذكّر مثل هذا الدعاء وهي حامل، وكانت من الممكن أن تنسى، فهي تنسى أشياء كثيرة، وتنسى دائماً أين وضعت مفتاح الدولاب.

تعجّب عقلها وهي نائمة كيف يتحدد مصائر الأولاد أو البنات بمثل هذه الصدف، ولمجرّد أن الأم تذكّرت الدعاء أو نسيته، وقالت لنفسها: ولكن إذا نسيت أمي الدعاء وكانت النتيجة أنها ولدتني ولداً، فهل أكون مسؤولة عن هذا الخطأ أم أن أمي هي المسؤولة؟ ومن المسؤول، أمي أم الله؟ لأن الله هو الذي يتقبّل الدعاء أو يرفضه، وهو الذي يخلق الناس ويحدّد مصائرهم ونوعهم أولاداً أو بناتاً.

وفي الصباح حمل عنها أبوها حقيبة ملابسها، ولوّحت لأمها بيده وهي تقف تطلّ عليهما من النافذة، وكانت تبتسم لها، كِلا عينيها كانتا تلمعان كأنما تدمعان، وأحست بشيء يشدّ قلبها إلى أسفل، وأرادت أن تستدير وتعود إلى أمها لتحيطها بذراعيها وتقبّلها، واستدارت فعلاً، ورأت وجه أمها من بعيد كقطعة ضوء مستديرة صغيرة تلمع من النافذة.

توقفت عن السير، فالتفت إليها أبوها وقال لها: أسرعي، وإلا فاتنا القطار.

وفي القطار لم تبهجها حركة أعمدة السواري وهي تتراجع إلى الخلف، ولم تفرحها حركة القطار السريعة. كانت تحسّ أن القطار يحملها بعيداً عن أمها بسرعة جنونية، وهي تحب أمها رغم كل شيء، ورغم أنها أصبحت تطيع أباها طاعةً عمياء

وتقف معه ضدها، لكنها تحس أنها تحبها، وتحزن لفراقها إلى حدّ البكاء، لكنها لا تبكي مثلها، ولا يجوز لها أن تبكي مهما حدث، فقد كبرت ولم تعد تبكي كما كانت تفعل وهي صغيرة، وقلبها كان صغيراً ويتأثر بسرعة، أما الآن فقد كبر قلبها وتحجّر ولم يعد يؤلمها شيء.

ابتلعت دموعها وهي جالسة إلى جوار أبيها في القطار، وأبوها كان صامتاً، وظل صامتاً حتى وصلا إلى بيت جدها في العباسية. ورأت جدتها جالسة في الصالة بثوبها الأسود، وانفرجت شفتاها حين رأتهما وقالت بصوت منخفض: "أهلاً وسهلاً"، فردّ أبوها قائلاً: "أهلاً بكِ"، وساد الصمت مرةً أخرى. جاءت خالتها ترتدي ثوباً أسود وقالت بصوت منخفض حزين: "أهلاً وسهلاً"، فردّ أبوها قائلاً: "أهلاً بكِ"، وخيّم الصمت في الصالة الواسعة.

بعد أن شرب أبوها القهوة قال إنه سيعود إلى دسوق، فقالت جدتها بصوتها المنخفض: "لماذا لا تبيت الليلة هنا وتسافر في الصباح؟"، فقال أبوها إنّ عنده عمل في الصباح ولا بدّ أن يسافر الليلة. نهضت جدتها وصافحته، وصافحته خالتها أيضاً، وأقبل أبوها نحوها ومدّ لها يده وهو يقول: "سأعود إلى دسوق يا سعاد وأتركك هنا في رعاية جدتك وخالتك وأودّ أن أسمع عنك منهما كل خير وأنك تذاكرين ولا تضيعين الوقت".

ظلّ أبوها ممسكاً بيدها، وهمّ أن يعانقها لكنه لم يفعل، وارتعشت عضلة صغيرة تحت أنفه، وأدركت من عيني أبيها

أنه يكبت في أعماقه شيئاً يشبه الحب، كأنما هو يحبها حقيقةً لكنه يخجل أن يُظهر هذا الحب لنفسه أو للآخرين.

ترك أبوها يدها واستدار ليخرج من الباب، ورأت ظهره تشوبه انحناءة خفيفة لم ترها من قبل، وهمّت أن تجري وراءه وتقول له: لا تتركني، لكنها خجلت من نفسها، فهي لم تعد طفلة، وكل من يراها يقول إنها كبرت وأصبحت فتاة كبيرة.

ظلّت عيناها معلقتين بظهر أبيها حتى هبط السلم وخرج من باب الحديقة. استدار أبوها قبل أن يختفي ولوّح لها بيده فرفعت يدها ولوّحت له بقلب ثقيل، ثم استدارت ودخلت إلى الصالة حيث رأت جدتها جالسة، فظلت واقفة إلى جوارها لا تعرف ماذا تفعل، إلى أن سمعت صوتها المنخفض يقول لها: "تعالي يا سعاد اجلسي إلى جواري، لماذا أنتِ واقفة هكذا؟".

قبل أن تنام تلك الليلة جلست جدتها إلى جوارها وراحت تحدثها عن أيام زمان. قالت إن جدها كان رجلاً غنياً، وكانت له عزبة كبيرة، والخديوي إسماعيل كان صديقاً حميماً له، لكن هذه الصداقة جلبت لهم الفقر، فالخديوي كان مسرفاً وفاسداً إلى حدّ الإفلاس والاستدانة من أصدقائه الأثرياء ومنهم جدها الذي باع عزبته وأقرض الخديوي ثمنها كله، ولم يأخذ منه إلا ورقة صغيرة على شكل إيصال، ولم يرثوا عن جدها إلا هذا الإيصال الذي حفظوه في درج له قفل، على أمل أن يُخرجوه يوماً ويطالبوا بحقهم.

عرفت سعاد من جدتها أن الإيصال ما زال موجوداً في أحد

مكتبة الفكر الجديد

الأدراج في بيت أحد رجال أسرتها، وأن الأمل في استرداد العزبة ما زال موجوداً عندها، فهي تثق بأن الله عادل وأنه لا يتخلّى عن حق عباده أبداً، وهي سوف ترث حقها في العزبة، وبعد أن تموت سوف ترث أمها نصيبها بالكامل. وتنهّدت جدتها وهي تقول لها: "وبعد عمر طويل، وبعد أن تشبع أمك من الدنيا، سوف ترثين أنت نصيبك بعد وفاتها يا سعاد".

كانت سعاد قد بلغت الحادية عشرة من عمرها، وقد سمعت من قبل مثل هذه القصة من أمها، وشعرت بنوع من الزهوّ والغبطة لأنها تنتمي إلى أسرة غنية بهذا الشكل، وحكت لزميلاتها في المدرسة عنها، وأن الخديوي اقترض أموال أجدادها، ومعنى ذلك أنهم كانوا أغنى من الخديوي. وعرفت من التاريخ أن الخديوي كان جدّ الملك، فازدادت زهواً وخيّل إليها أنها في مستوى الملك بل ربما أفضل منه، لأن جد الملك استدان من جدها لكن جدها لم يستدن من أحد.

وكانت جدران بيت جدها مغطاة بالصور، تعرّفت في إحداها صورة الخديوي، لأنها تشبه صورته في كتاب التاريخ. وتأكدت حين رأت الصورة أن الخديوي أخذ العزبة فعلاً، وأنه كان صديقاً للأسرة، وإلا فلماذا يعلّقون صورته في البيت؟ ورأت ضمن الصور أيضاً صورة سعد زغلول، وحكت هذا أيضاً لزملائها في المدرسة وهي تشعر بالزهو.

كانت دائمة البحث عن قصص تحكيها لزميلاتها حتى تشعر أنها أفضل منهن، فقد كانت تحس دائماً أنها أقل منهن، وأنهن

مكتبة الفكر الجديد

أكثر منها ذكاءً وأقدر منها على حفظ الدروس. ولم تكن كل تلك القصص عن أجدادها وأمجاد أسرتها تصنع شيئاً، وإحساسها بأنها أقل من غيرها مكتوم في صدرها، عميق، يؤلمها. وأشد ما يؤلمها إحساسها بأنها أقل من أخيها الأصغر مصطفى، وكثيراً ما سمعت أمها تقول إن مصطفى ذكي جداً. وأبوها كان يقول دائماً إن مصطفى ورث الذكاء عنه لأنه كان دائماً الأول في فصله مثل مصطفى.

لم يكن أبوها يقول صراحةً إن مصطفى أذكى منها، لكنها كانت تحس من نظراته وهو ينظر إليهما أنه يقارن بينها وبين أخيها، وأنه معجب بأخيها وغير معجب بها، وإعجابه بأخيها لا يساويه إلا عدم إعجابه بها، فتكبت المرارة والألم في نفسها وتتظاهر بأنها لم تفهم نظرات أبيها. وقد تشترك مع أبيها في الإعجاب بذكاء أخيها، وبالفرح بهذا الذكاء، ولكنها في الحقيقة لم تكن تشعر بأي فرح، واشتراكها مع أبيها في مدح أخيها يبدو لها كالاعتراف الضمني بأن أخاها أفضل منها، وهو اعتراف لا تفصح عنه لكنه يشعرها بالإهانة المضاعفة، فكأنها تشترك مع أبيها في عدم الإعجاب بنفسها. وتشعر بالضيق لأنها تكذب لترضي أباها وتوافقه على رأيه، حتى لو كان هذا الرأي ضدها هي نفسها، هذه النفس التي أصبحت تحتقرها لأنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها وإبداء رأيها الحقيقي.

كان رأيها الحقيقي أنها لا تحب أخاها، وكلما زاد إعجاب أمها وأبيها به زادت كراهيتها له. وكانت ترى في عيني أخيها

مكتبة الفكر الجديد

نظرة لا تعجبها، فالمفروض أنه أصغر منها بأربعة أعوام، لكنه لا يعاملها كأخت كبرى. و"الأخت الكبرى" لقب محترم يعوّضها عن شعورها بأنها أقل منه، فكانت تردّد أمامه دائماً أنها الأخت الكبرى وأن للأخت الأكبر احترام، لكن أخاها مصطفى لم يكن يهابها وكان يثبّت عينيه في عينيها كأنه يتحدّاها، فكان الدم يغلي في عروقها غضباً فتضربه، وتحسّ وهي تضربه أنه أقوى منها وأنه يتفوق عليها جسدياً، فيزيدها هذا الشعور من إحساسها الدفين بأنها أقل منه.

وقد تعلّقت سعاد بجدتها لأنها كانت تعلن دائماً في الصالة الواسعة حيث تجلس عن إعجابها بها وعدم إعجابها بخالها حسنين الذي تقول عنه إنه شاب طائش يضيّع فلوسه في الذهاب إلى السينما والمشي مع البنات. ولم تعرف أول الأمر لماذا تعجب بها جدتها، لكنها قالت إنها معجبة بها لأنها تواظب على الصلاة، أما خالها حسنين فهو لا يصلّي ولا يصوم ولا يعرف ربنا، وقد ورث أخلاق المرحوم أبيه وسوف يعاقبه الله: لن يفتح عليه أبداً لأنه لا يطيعها. وقالت لها جدتها إنها ورثت ملامح أمها وليس خالها حسنين والحمد لله، وحذّرتها من أن تقلّد خالها أو تجلس معه في حجرته حين تأتي إليه صديقاته البنات. وأمها وأبوها أيضاً حذّراها، ونصحها أبوها أن تغلق حجرتها على نفسها وتذاكر ولا تضيّع وقتها بالذهاب إلى السينما، فالسينما تفسد الأخلاق، وقد حرّم الله الفساد وحرّم علاقة الرجل بالمرأة إلا بعد الزواج.

مكتبة الفكر الجديد

كانت سعاد قد أصبحت تسمع كلام أبيها وتصدّقه وتطيعه من دون مجهود أو تفكير، فأبوها هو الذي يعرف مصلحتها وهي لا تعرف مصلحة نفسها كما يقول لها أبوها دائماً. وأبوها هو الذي ينفق عليها، وهي لا تستطيع أن تعيش بلا أب ينفق أو بلا بيت أو أسرة، فالحياة واسعة والناس الأشرار كثيرون والليل مظلم ومليء باللصوص والقتلة، والعباسية مدينة كبيرة ضخمة، ليست مثل دسوق، ولا تعرف من شوارعها الكثيرة إلا الطريق من البيت إلى المدرسة. وحين تسير في الشارع وحدها تحسّ أنها غريبة ولا أحد يعرفها ولا هي تعرف أحداً، وتخاف من الخروج وحدها بالليل. وتستغل إجازة العيد لترى أمها وأباها وأختها وأخاها، وقد أصبحت تحبهم كلهم وهم يحبونها ويكتبون إليها رسائل يقولون فيها إنهم يشتاقون لرؤيتها. أما العباسية، فلا أحد فيها يشتاق لرؤيتها في البيت أو في المدرسة، وشوارعها غريبة ومجهولة ومملوءة أيضاً بالفساد من سينما ورجال وخمر وملاهي حرّمها الله وأبوها وأمها وجدتها جميعاً، وليس أمامها إلا أن تغلق عليها باب حجرتها وتذاكر وتواظب على الصلاة ليحميها الله من كل مكروه كما نصحها أبوها.

وأصبحت تحب الإجازات الطويلة لتسافر إلى دسوق، وإجازة الصيف أطول إجازة وتفضّلها على الجميع، وإجازة العيد الكبير أفضل من إجازة العيد الصغير لأنها أطول منها. كما أن مشاهدة الجزار وهو يذبح خروف العيد له عندها متعة

مكتبة الفكر الجديد

أكثر من مشاهدة أمها وهي تصنع الكعك قبل العيد الصغير. وصلاة العيد تهزّ قلبها، وذلك الدعاء الذي تتفتّح أذناها فجر العيد عليه، وصوت الآلاف يهتفون في صوت واحد: الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله وبحمده بكرةً وأصيلا... ويد أبيها تمتد لها بمصروف العيد، أكبر من أي مصروف في أي يوم، وترتدي الحذاء الجديد والفستان الجديد وتخرج إلى الشارع مزهوةً بين بنات أولاد الجيران، وتشتري بالمصروف كله زمامير وبمب وبالونات ملونة.

إلا أن أكثر ما كان يثيرها تلك اللحظة التي يهوي بها الجزار على عنق الخروف ويندفع الدم الغزير كالنافورة فوق بلاط الحمام، والأقدام الأربعة مع الجسد تنتفض وتتقلص بشدة، وعينا الخروف الواسعتان مفتوحتان تنظران إليها بألم وحزن وعتاب، كأنما يقول لها: لماذا لم تقولي لي إنهم سيذبحونني وأنتِ تطعمينني البرسيم؟ هل تآمرتِ معهم ضدي مع أنك كنتِ تربتين على ظهري؟

يتلاشى الفرح من قلب سعاد، وتحس قلبها ثقيلاً وبهجة العيد تتبخّر، ولحم الخروف الذي تحمّره أمها في السمن ثقيل في معدتها، تأكله بغير فرح، وترى وهي تأكله عيني الخروف تنظران إليها في حزن وتساؤل: لماذا يذبحونني؟

لم تكن تعرف الإجابة على هذا السؤال فسألت أباها، فحكى لها أبوها قصة سيدنا إبراهيم الذي فاجأة الله ذات يوم بأمرٍ غريب لا بدّ أن يطيعه على الفور دون أن يسأل أو يناقش،

مكتبة الفكر الجديد

فأوامر الله تُطاع ولا تناقش وليس على الإنسان أن يعرف أسبابها وحكمتها، فالله له حكمته التي تعلو فوق عقل الإنسان. وكان الأمر الذي تلقّاه سيدنا إبراهيم هو أن يذبح ابنه إسحاق بسكين فوق الجبل، فساق إبراهيم ابنه إلى الجبل ليذبحه...

ارتعدت مفاصل سعاد وهي تستمع لأبيها، وقد تخيّلت الابن الصغير صاعداً إلى جوار أبيه نحو الجبل يتحسّس عنقه في رعب ولا يعرف لماذا يذبحه أبوه وهو لم يخطئ ولم يقترف ذنباً يغضب الله منه. وتساءلت سعاد بصوتٍ مرتجف: "ولماذا يعاقب الله إسحاق بالذبح وهو لم يفعل أي ذنب؟"، فقال أبوها: "إن الله لم يكن يعاقب إسحاق ولكنه كان يمتحن أباه إبراهيم بهذا الأمر الصعب ليرى هل سيطيع أمر الله أم لا؟ وقد نجح سيدنا إبراهيم في الامتحان، وأطاع أمر الله، ووضع السكين فوق عنق ابنه ليذبحه... (تسارعت دقات قلب سعاد وتعاقبت أنفاسها وهي تتحسس عنقها بأصابع مرتجفة)... وفي اللحظة الأخيرة، وقبل أن تقطع السكين عنق الابن، وقد تأكد الله من طاعة إبراهيم له، أنزل الله من السماء خروفاً ليذبحه إبراهيم بدلاً من ابنه، مكافأةً له على طاعة الله، فالطاعة يا ابنتي هي أعظم الفضائل".

كانت سعاد لا تزال ترتعد، وعقلها لا يزال مشغولاً بالابن الصغير الذي أسلم عنقه للذبح، والذي كان لا بدّ قد مات من الذعر حين اقتربت السكين من عنقه. لكن أحداً لم يكن يفكّر في حالة الابن النفسية، حتى الله نفسه لم يكن يهتم إلا بامتحان

مكتبة الفكر الجديد

طاعة الأب على حساب الابن، ولم يتردد الأب في إظهار هذه الطاعة ونجح في الامتحان. أما الابن، فماذا حدث له إثر هذه التجربة المخيفة؟ وإذا تردّد الأب وسقط في الامتحان، فهل يذبح الابن لأن أباه غير مطيع لله، وكيف يرضي الله أن يعقاب الابن بسبب ذنب أبيه، وهل هذا عدل؟

أنفاسها كانت تلهث وشفتاها تنفرجان على وشك أن تسأل أباها، لكنها لم تسأل، فقد عوّدها أبوها منذ سنين كثيرة ألاّ تسال وألاّ تفكّر كثيراً في حكم الله، وكانت تحاول أن تنهي عقلها عن التفكير، لكن عقلها كان يفكّر رغم إرادتها، وقلبها أيضا كان يدقّ بسرعة رغم إرادتها، ونوعٌ من الرعب يزحف فوق جسدها وعنقها، وعيناها تختلسان النظر إلى أبيها، تحاول أن تختبر بعينيها ملامح أبيها، وهل يمكن لأبيها أن يذبحها لو أمره الله بذلك؟ ولماذا يأمر الله الآباء بمثل هذه الأوامر المفزعة للأبناء؟ ولماذا لا يفكّر الله في مشاعر الأبناء ولا يفكّر إلا في الآباء فقط؟

أسئلة كثيرة قديمة منذ الطفولة لم تعد تسألها لنفسها، فقد أدركت أن الأسئلة حرام، وأن مثل هذا التفكير نوعٌ من الكفر بالله وبعدالة الله، فالله عادل سواء عدل أو ظلم أو بطش، والله رحيم سواء ذبح الأبناء أم لم يذبحهم.

وفي بيت جدها الواسع لم تعد مثل هذه الأفكار الطفولية تراودها، وعقلها أصبح مشغولاً بالدروس الكثيرة. فالمدرسة الثانوية أصعب من الابتدائية، والكتب أكبر حجماً، والامتحانات

مكتبة الفكر الجديد

أصعب، وبمجرد أن تعود من المدرسة تجلس في حجرتها وتذاكر حتى يأتي الليل. والليل في بيت جدها الواسع الصامت مخيف، وروح جدها قد تظهر في أي ليلة على شكل عفريت. والعفريت مثل الجن، يعرف ما لا يعرفه الإنسان، وقد يعرف عفريت جدها أنها لم تكن تحب جدها فينقضّ عليها في إحدى الليالي لمجرد الانتقام.

لشدة خوفها كانت سعاد تجلس بالقرب من جدتها حيثما تكون، في الصالة أو في حجرتها، وأحياناً تتبعها حتى دورة المياه وتنتظرها أمام الباب حتى تخرج. لم يكن منظر جدتها يطمئنها كثيراً: رأسها مغطّى بالسواد، وجسمها مغطّى بالسواد، ولا يظهر منها إلا وجه بلا ملامح، عينان رماديتان لا تعرف منهما هل هي تراها أم لا تراها، وشفتان منقبضتان لا تعرف منهما هل هي صامتة أم تتحدث أم تتنفس أم توقفت عن التنفس. وحين يسود الصمت في البيت ترهف أذنيها لسماع صوت أنفاسها، أو لمراقبة صدرها وهو يعلو ويهبط، فهي تخشى أن يتوقف كل شيء فيها فجأةً وتموت هي الأخرى كما مات جدها. وهي لا تريد منها أن تموت إلا بعد أن تتخرّج من المدرسة الثانوية، فهي الوحيدة التي تسليها في هذا البيت، وهي لا تسليها بالكلام لأنها صامتة معظم الوقت، ولكن صوت أنفاسها يبدّد خوفها من عفريت جدها. كما أنها لو ماتت هي الأخرى فسوف يصبح في البيت عفريتان اثنان بدلاً من عفريت واحد.

في مكتبة المدرسة الثانوية عثرت على كتب كثيرة مليئة

مكتبة الفكر الجديد

بقصص الحب، وكانت كلمة "حب" تفزعها فتغلق الكتاب وتكفّ عن القراءة وتتوضأ وتطلب من الله أن يغفر ذنبها.

بعد الصلاة تشعر بنوع من الراحة، كأنّما تقبّل الله توبتها وغفر ذنبها وأعادها إلى ملكوته مع الصالحات والصالحين. إلا أنها تدخل إلى المكتبة مرةً أخرى لتقرأ، وتشعر بلذة وهي تقرأ الكتب والقصص، لكن اللذة يصاحبها نوعٌ من الذعر خوفاً من عقاب الله والحرق في النار، فتسرع إلى الوضوء والصلاة والتوبة.

وتتكرر القراءة مع اللذة مع الفزع والألم، يعقبها إحساس بالذنب أشدّ عنفاً، وشعورٌ بالمهانة والضعف والفساد، والخوف من عقاب الله. وصوت أبيها يأتيها وهي نائمة يقول لها بغضب: "لا بدّ أن تطردي الشيطان من عقلك وروحك"، فتغمض عينيها تحاول النوم وتحاول أن تطرد الشيطان الذي يدفعها إلى قراءة الكتب خارج المنهاج المقرر في المدرسة.

كانت الدروس التي يلقيها عليها المدرّسون والمدرّسات مملّة كئيبة خالية من المعنى، مفككة لا يربطها شيء، ولا يمكن لها أن تفهم شيئاً، وما عليها إلا أن تحفظ الدروس عن ظهر قلب كما تحفظ آيات القرآن.

وفي نهاية العام نجحت في الامتحان بتفوق وعادت إلى دسوق لتمضي الإجازة الصيفية مع أبيها وأمها وأختها وأخيها. كانت قد أتمّت الحادية عشرة من عمرها، وأصبحت طويلة القامة، وفوق صدرها نبت برعمان صغيران بحجم حبتَي عنب أو زيتون.

مكتبة الفكر الجديد

أثناء الإجازة جاءت جدتها وعمتها وخالتها وسمعت الهمس يدور من ورائها، لكنها لم تعرف ما الذي حدث تماماً. وحين جاء أول العام الدارسي لم يطلب منها أبوها أن تعدّ حقيبتها. وبدأوا ينادونها "العروسة". وجاء رجل غريب الشكل كانوا ينادونه "العريس". وفي ليلة مليئة بالضجيج والازدحام والطبل جعلوها تمشي إلى جوار هذا الرجل ويده في يدها. كانت ترتدي ثوباً أبيض ووجهها أبيض بلون الثوب. وانغلق الباب عليها وحدها مع هذا الرجل، وكانت طفلة في الحادية عشرة والنصف.

حين انفتح الباب في الصباح لم تكن هي سعاد الطفلة. في ليلة واحدة قفزت من الطفولة إلى الشيخوخة ثم ماتت بعد أن أنجبت طفلة تشبهها سمّتها سعاد.

الرواية الأولى لنوال السعداوي

"وأنا أرتّب أوراقي القديمة في أحد الأدراج المهملة في مكتبي عثرت على كراسة من كراريسي عندما كنت في السنة الأولى بالمدرسة الثانوية، مكتوب عليها: واجب الإنشاء. كان ذلك عام ١٩٤٤، وقد طلب منّا مدرس اللغة العربية أن نختار موضوعاً لحصة الإنشاء المقبلة. واخترت هذا الموضوع 'مذكرات طفلة اسمها سعاد' فملأت الكراسة كلها وأعطيتها للمدرس، فقرأها وأعطاني صفراً.

ربما هذا 'الصفر' هو الذي جعلني أتوقف عن الكتابة سنين طويلة، والذي جعلني أدخل كلية الطب بدلاً من كلية الآداب، والذي لولا أبي وأمي لانتهت حياتي بمثل ما انتهت حياة سعاد. ولهذا رأيت أن أنشر هذه الأوراق القديمة، وأن أهديها إلى كل طفلة 'أو طفل' تراودها فكرة الكتابة أو تشعر برغبة في ذلك."

المؤلفة

نوال السعداوي كاتبة مصرية عالمية ترجم بعض أعمالها إلى ٣٩ لغة. تخرّجت من كلّية الطب - جامعة القاهرة عام ١٩٥٥ وتعرّضت بسبب أفكارها وكتاباتها إلى الفصل من العمل والسجن والنفي والتهديد بالقتل. صدر لها في الرواية عن دار الساقي "زينة" و"الحب في زمن النفط" و"سقوط الإمام" التي ترجمت إلى ١٤ لغة.

مكتبة الفكر الجديد

ISBN 978-6-14425-842-2

DAR AL SAQI
دار الساقي

www.daralsaqi.com

9 786144 258422

مكتبة الفكر الجديد